شيءٌ للكتب

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : شيءٌ للكتب
اسم المؤلف: أحمد أبو سيف
التدقيق اللغوي: منى حلمي
تصميم الغلاف: أحمد ربيع
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ١٥٣٠٨ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-١٨-١

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

شيءٌ للكتب

أحمد أبو سيف

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

للأوراق.. للأقلام.. للكتب.

لا لشيء آخر.

"إنَّ الكُتُب هي مَنْ غيَّرتْني، ومَنْ أنقذتْني،وأعلمُ في قرارةِ نفسي أنَّها ستنقذُكم أيضًا.

أنقذتْني الكُتُب مِن الرَّتابة، والغضب، والجُنون، وتدمير الذَّات، وعلَّمتْني الحُبّ، بل، وأكثر مِنْ ذلك بكثيرٍ".

"إليف شفاق"

"لطالمَا تخيَّلتُ الجَنَّةَ على هيئة مكتبة".

"خورخي لويس بورخيس"

بدايةٌ
لستُ أعرفُ لَهَا نهايةً!!

بسم الله الرحمن الرحيم

أبدأُ حديثي هنا، ولستُ أعلم إلى أين يأخذني؟

أعلمُ أنَّها كتابات تخصُّني، وهي فى غالبيتها عن الكتابة والكُتُب، وفيها مواقف مِنْ حياتي أقصُّها فيما يشبهُ المُذكَّرات، ولكن ليستْ في قالب مُذكَّرات اعتيادي، وإنَّما هي شيءٌ لستُ، وأنا أشرعُ فى الكتابة الآن أتبيَّنُهُ؛ وإذْ أمضي فى فعلتي تلك شيءٌ فشيءٌ سيبينُ لي مأربي، ولعلَّي مع وضعي لنقطة نهاية، أكونُ قد وصلتُ إلى غاية، أو لا أكون، لا يهمُّ.

الذي يهمُّ، هو: أنِّي قد شرعتُ في الكتابة، والمكتوب هو:"شيءٌ للكُتُب"؛ فلطالَما اعتقدتُ أنَّ محياي، ومماتي، وقلبي، وعقلي، وفؤادي، وحياتي ككُلٍّ هي "شيءٌ للكُتُب".

وقد صادفني منشورٌ على "الفيس بوك" منذ أيامٍ يسألُ فيه صاحبُهُ: "إذا ألَّفتَ كتابًا عن حياتكَ، ماذا سيكونُ عنوانُهُ؟".

لَمْ أفكِّرْ طويلًا؛ لأنَّهُ سؤال اعتيادي جدًا-بالنسبة لي- أعرفُهُ، ولطالَما راودني سنين وسنين!

الجواب عليه غاية في السهولة، ولستُ أجهلُهُ، هو: "شيءٌ للكُتُب".

الكُتُب هي بدايتي ومنتهاي، وهي بَعد عون الله سببٌ لكُلِّ غاية سليمة

نلتُها، ولكُلِّ نقمة عقيمة تجنَّبتُها.

بها عرفتُ نفسي، وأذكيتُ عقلي، وهذَّبتُ روحي، ورسمتُ مبادئي، وشغلتُ وقتي فيما ينفعُ، وقد سلَّحتْني الكُتُب باليقظة، والحِلْم، والسكون، وسِعة الاطلاع، وقُوَّة الشخصية ضد المُتربِّصينَ بي مِنْ: جماد، وحيوان، وشَجَر، وبَشَر، فعرفتُهم، وألفتُهم، وإذا ما وجدتُ في أحدِهم انحرافًا أو ميلًا، أتيتُهم مِنْ حيثُ لا يعلمون؛ فحمدًا لله أوَّلًا، وشكرًا للكُتُب.

حيثُ يأخذُني حديثي عنها إلى أسطر عِدَّة، وأسطرُ لا يسعني أن أنسى أن آتي على ذكر قصَائِد كتبتُها لها في فترات عِدَّة مِنْ حياتي... منها على سبيل المثال: قصيدة "الفضائي"، وفيها أقولُ:

"سَارَ خلفِي شيءٌ مِنْ بَعِيد شكلُهُ أشبهُ بفضَائِي

نادَاني وقَالَ: يَا ابنَ الأرضِ أَنَا أبحثُ عَنْ أَشْيَاءِ

سألْتُهُ: وأيُّ الأشياءِ تريدُ مَاذَا ينقصُكَ يَا فضَائِي؟

قَالَ: الكُتُبُ التي على الأرض هي حتمًا أغْلَى الأشياءِ".

وقصيدة "أكتبُ وأقرأُ"، وهي مكتوبة بالعامية المصريَّة:

"أنا مِش عايز قَدر مترتِّب

ومِش عايز أرض... فلُوس وبيُوت

أنا عايز بَس أَفْضل أَكْتِب

وأقرأ في كُتُبي لحد ما أَمُوت".

وكذلك قصيدة "كُتُبِي":

"كُتُبي أَغْلَى عندي مِني
وأغْلَى مني عندِي كُتُبِ
والخاطرُ دومًا في ظنِّي
لا يخرجُ عن نَص الكُتُبِ".

أمَّا عن القصائد التي عنيت بها الكتابة، مرغم على أن آتي على ذكرِها؛ لأنَّها ليس بينها وبين الكُتُب اختلاف؛ فبالنسبة لي تلك هي هذه، وهذه هي تلك.

أذكرُ منها على سبيل المثال: قصيدة "الكتابة الأولى":

"لولا الدُّنيا اللاهية
ولولا الشُّغل الشَّاغِل
أعتزلُ أيُّتها اللاهية
وأتفرَّغُ للكتابة بالكامل".

وقصيدة"الكتابة الثانية":

"لولا إنِّي عايش

والعَايش تصاريفُهُ كِتير

كنت أَفْضَل في الدفتر قَافِش

والحِبر يقطَّر تقطير".

وقصيدة "الكتابة الثالثة":

"إنِّي أعيش

لأجل أن أكتِب

ولأجل إنِّي أكتِب

أحتمل أن أعيش".

وقصيدة "الكتابة الرابعة":

"لولا مخافة دُنيا تفوتني

وقَطر يعدِّي وملحقهوش

أقضِّي حياتي قِرَاية وكِتَابة
أعتزل العَالَم ولا أشوفهوش".

وقصيدة "الكتابة الخامسة":
"حُبِّي لشيء دونه لست شيء
ولست دونه أنتسبُ انتسابا
ولستُ أنتمِي ولستُ أعيش
حُبّ مُنصرِف دومًا للكتابة".

وقصيدة "الكتابة السادسة":
حُبِّي إليكِ يُذِيب الرَّتابة
يُمِيت الحزن، يقتلُ القنوط
حُبّ لو الجَفَا عقده يا الكتابة
بالجَفَا قد رضيتُ فأُملِي الشروط".

هنا أعلمُ وتعلمُون مِمَّا سبقَ: أنَّ الكُتُب هي الشمس التى تدورُ حولها أفلاك حياتي؛ فبها تأثَّرتُ وأثَّرتُ، وعلى الرغم من أنِّي لَمْ أعرفْها بشكلِها الحقيقي إلَّا في فترات متأخرة مِنْ حياتي، إلَّا أنَّ لقائي بها هو شيءٌ مِنْ صُنع القدير، وهو شيءٌ مُقدَّرُ لَهُ الحدوث، وحياتي رغم اعتزالي فيها البشرُ لوقت طويل، ورغم خلوها مِنْ أية سفريات، أو مغامرات، أو مخاطرات حقيقيَّة، إلَّا أنَّهُ، ومع ذلك بها الكثيرُ ليُسرَد، وسردِي لها يبدأُ مِنْ نقطة بعيدة تسكنُ على مشارف عقلي الواهن... معذرةً أعني: الباطن!

وتلك النقطة، هي: (مرحلة الطفولة المبكرة)، وتلك نقطة لو أخترتُ الخوض فيها، فسأكونُ مُجبرًا على أن أخطو بعمق داخل غرفةٍ، لطالما أثارتْ في نفسي مشاعِر كثيرة مُتناقِضة، أبرزُها القلق، وتلك الغرفة، هي:(غرفة الذاكرة).

غرفة الذاكرة
مرحلة الطفولة المبكرة

إنَّ أغرب جزء في دماغ الإنسان، هو: ذلك الجزء المسئول عن الذاكرة... تلك الخزينة التى تحوِي أكداس مُكدَّسة من الملفات المعنونة بتواريخ ومراحل، ولكُلِّ مرحلة طابع مختلف وملامح.

وبالذاكرة يتعرَّفُ الواحد منا على نفسه، ويقدِّرُ بعناية مواقفه ومبادئه، ويتعرَّفُ مِنْ خلالها على الناس مِنْ حوله، وذلك بناءً على الفعل والقول الصادر منهم تجاهه... للذاكرة عندي أهمية كبيرة، أشبِّهُها بغرفة مهجورة وسط العديد من الغُرف، هي غرفة أزورُها .... ومِنْ وقتٍ لآخر أقلِّبُ فى محتوياتها بشغفٍ، وأنفضُ الغُبار عن تلك المحتويات؛ فيتناثرُ فيها يشبه الزوابع الصغيرة.

الذاكرة غرفة بها العديد من الأدلبة الحديدية ولتلك الأدلبة أرفف تحتوي على ملفات مُجلَّدة بعنايةٍ، داخلها أوراق كبيرة مقاس (A٤) مطبوعة، أحد تلك الملفات مكتوب عليه بخط عريض:"الطفولة المبكرة"، وهو ملف مُقطَّع، متناثرة أوراقه، وغير سميك، إنَّهُ حتَّى لا يكاد يتعدَّى الأربعين صفحة... عدد هين جدًا مقارنة بباقي الملفات التي تختص بمراحل عُمريَّة أخرى، ورغم صغر حجم هذا الملف إلَّا أنَّهُ يتمتعُ لديَّ بأهمية كبيرة؛ إذ أنَّهُ

يحتوي على عدد غير هين من الذكريات المُؤسِّسة لشخصي ومبادئي، ذكريات هي بمثابة البدايات لكُلِّ شيءٍ يعتملُ في صدري، وتفور لَهُ الدماء السارية فى عروقي.

فى مكانٍ ما داخل ذلك الملف مكتوبة ذكرى لي، حينما كنتُ في المرحلة الإبتدائية... جالس على تختة منفردًا في إحدى لجان الامتحانات، المُراقِبُ يجلس على كرسي وحدَهُ في المقدمة، والتخت الأخرى يجلس عليها عدد غير هين من زملاء الدراسة القُدَامى، يجلسون في كُلِّ مكانٍ حولي، وأرى وجوههم جميعًا بوضوحٍ.

يعتريني المَلَل؛ فأعكفُ على ورقة الأسئلة، أرسمُ على حواشيها بالقلم الجاف أشجارًا وورودًا.... يراني المُراقِبُ؛ فيتذمَّر بسبب إفسادي للورقة، ثُمَّ يصفعُني بقوةٍ، ويبعثُ لأحد المُراقِبينَ؛ ليأتيني بورقة أخرى غيرها.

تضايقُني الصفعة بشدةٍ، وأوشك بسببِها على البكاء، وزملائي مِنْ حولي ينظرُون نحوي، ويتضاحكون.

تلك ذكرى تبيِّنُ واحدة مِن الأسباب التي جعلتْني أكرهُ المدرسة، وبشدةٍ!

والكُرهُ تحوَّل إلى ما يشبهُ الفشل، والفشل دفعتُ ثمنَهُ غاليًا.

في مكان آخر من ملف "مرحلة الطفولة المبكرة" تكمنُ ذكرى لي شديدة الشبه بتلك، إلَّا أنَّها تختلفُ عنها بشكل كبير... جالس على تختة فى إحدى لجان الامتحانات، وقد طلب السؤال الأول منا في الامتحان كتابة موضوع

تعبيري من عدد مُعيَّن من الصفحات، فكتبتُهُ بكُلِّ سهولةٍ، وحينما وضعتُ نقطة النهاية، كنتُ أعلمُ أنَّ لديَّ القُدرة أن أكتب المزيد والمزيد، بينما زملائي مِنْ حولي، لا يستطيعون إكمال، ولو حتَّى صفحة!!

تلك الذكرى تنبَّأتْ بمصيري قبل سنين عِدَّة مِنْ حدوثه، وهو: "مصير الكتابة"، حدثتْ معي، ونسيتُها زمنًا، وحينما وجدتُ في نفسي ميلًا إلى الكتابة، عدتُ، وتذكَّرتُها.

أجبرتْني تلك الذكرى على العودة إلى غرفة الذاكرة راكضًا؛ لأبحثَ عنها، وحينما وجدتُها تمثَّلتْ أمامي، وأصبحتْ شديدة الوضوح، كما لو أنَّها حدثتْ في القريب.

داخل ملف "مرحلة الطفولة المبكرة" ذكرى أخرى لي أنا، ومجموعة مِنْ أصدقاء تلك المرحلة... رآنا رجلٌ فاضلٌ، ونحن نركضُ في أرض واسعة، فنادَى علينا، ولَّما لبَّينا لَهُ النداء، واقتربنا منه راح يصفُ كُلًّا منا بكلمةٍ هي أقربُ ما يكونُ إلى سلوكه وشخصيته.... أشار إلى أحدِنا، وقد كان يُعرَفُ بالجُبن.

قال لَهُ: أنتَ قلبُ الديك، وهكذا راح يصفُ كُلًّا منا بكلمةٍ، وعند كُلِّ كلمةٍ يقولها نضحكُ، وحيدًا أنا، لَمْ يصفْني بشيءٍ!!

وحينما سألوه عني، تأمَّل هنيهة ثُمَّ قال: هذا قلبُ الأسد.

فصمت الجميعُ تلك المرَّة، ولَمْ يضحكُوا.

حينما أتذكَّرُ تلك الذكرى، وأتذكَّرُ تلك الكلمة، منها أرى أنِّي قضيتُ الكثير من الوقت، وأنا أحاولُ أن أجد علاقة بيني وتلك الكلمة، أقرنُ نفسي بها، وأتخيَّلُ أنِّي فعلًا "قلب الأسد"؛ فلعلَّهُ عندما قالها قد رأى في نفسي شيئًا، وإلَّا ما كان قالها.

فحينما ألعبُ ألعبُ بنبلٍ ونزاهةٍ وشرفٍ؛ فالكذبُ خوفٌ، والرياءُ خِسَّةٌ، والنذالةُ ضَعفٌ، والهوانُ، هو: الشروع فى شيء، وعدم إكماله، صفاتٌ لا يُوصَف بها مَنْ هو مثلي، لا يُوصَفُ بها شخصٌ لديه مثل قلبي "قلب الأسد".

كُلُّ ذلك وأكثر أعلمُهُ مِنْ ملف"مرحلة الطفولة المبكرة"؛ فهو ملفٌ أتأمَّلُهُ كثيرًا أثناء زياراتي القليلة لغرفة الذاكرة، وأعتبرُهُ مِن الملفات القليلة التي تحظَى بحبي واهتمامي.

المدرسةُ والتلميذُ في مِصْر
"مدرسة المُشاغِبينَ مِثَال"

(مسرحية مدرسة المُشاغِبينَ دمَّرتْ أجيالًا كاملةً)

أين سمعتُ ذلك؟

رُبَّما في التلفاز أو على لسان صديق، رُبَّما قرأتُها عنوانًا لمقالةٍ لستُ واثقًا أين ألتقطتُها؟

لكني أثقُ فى شيء واحد، وهو: خطأ المقولة.

أمَّا المسرحيةُ نفسُها، فبعد قراءتي لها، أرى أنَّها عُنِيت بالتهذيب والإصلاح، لا التخريب والإفساد، قد يكونُ لها دورٌ فى ظاهرة عدم احترام تلميذٍ لمدرسه، والموجودة بكثرةٍ حاليًا، لكنَّ هذا، ولأسبابٍ قد ترجعُ إلى ثقافة المُتلقِّي ودوافعه، إنَّ ما كان يستلزم تذكُّرُهُ مِن المسرحيةِ، هي: النتيجة مِنْ مشهد البداية لمشهد النهاية.

و- للأسف- لَمْ يمكثْ منها فى عقول مشاهديها إلَّا مشاهَد الاستهزاء والتخريب، ولِمَا كان لتلاميذ الفصل بعض الحق فيما ظهر في حواراتهم عن فساد الكبار، وكان في ذلك تحريض غير مقصود للتقليد الأعمى.

والنتيجة؟

وحين شرع التلاميذُ في تقليد شخصيات، مثل: "بهجت"، و"مرسي"، و"منصور".... إلخ

كانوا يعتقدون أنَّ في الجهة الأخرى "عفاف"، لكنْ بدلًا مِنْ ذلك كانت العصا، فإذا بهم مُقلِّدُون ضحايا، أو وجدُوا فى حالات نادرة "علَّام" تلك الشخصية الضعيفة المُستسلِمة، والتى لن تحتمل هكذا أشخاصًا؛ فتنهار، ويستمر التقليد كمشهد بداية، لكنَّ، و- للأسف- لن يتوفَّر مشهد النهاية إلَّا تحت أضواء المسرح.

لكنَّ، ما العملُ؟

الآن قد ترتفعُ حِدَّةُ النقاش بشخصٍ يأتي مِنْ وراء الستار، ويقولُ:

-هي دمَّرت الجيلَ فعلًا، وزعمُكَ أنَّهُ عن غير قصدٍ غير مُجدٍ.

لكنَّ مَنْ قال حقًّا: إنَّ الجيل قبلَها لَمْ يكنْ مُدَمَّرًا؟

إنَّ رفض الخطأ، والردَّ على الظُّلم، والتمرُّد على طرائق التعليم العقيمة ظاهرة تستوجب التقدير والاحترام، ونعمْ، أنا أحترمُ تلميذًا يقفزُ مِنْ على سور مدرسته، إذا كان داخل السور عصا، ومقعدٌ يلزمُهُ خمسة ساعات، غير مسموح له فيها بالهمس والكلام!

نعمْ، أشجِّعُ تلميذًا يردُّ على منطق مُعلِّمِهِ بالمنطق، ولا ألومُ تلميذًا يردُّ على عصا مُعلِّمِهِ بما يحدثُ.

وأخيرًا...

بعد التفكير، نرى أنَّ ما وفَّرتْهُ المسرحية فعلًا، حتَّى، وإن كان بغير قصد، هو: حقُّ الردِّ للتلميذ على مُدرِّسِه، ولِمَا لَمْ يكنْ لَهُ في قانون المدرسة حقٌّ للردِّ، اختلق هو قانونَهُ وحَقَّهُ، ولا ردَّ على ذلك، إلَّا أنَّهُ مُنعَ منه حَقُّهُ غصبًا، فأوجدَهُ غصبًا.

وبالعودة لأرض الواقع، فقد ظُلِمت المسرحية بانحراف المُشاهَد المُقلَّد عن معناها؛ حيثُ لَمْ يكنْ الهدف: تأديتها على أرض الواقع، بل الهدفُ، هو: عيش التجربة، واستنشاقها مِنْ مُؤدِّيها على خشبة المسرح، والخروج بأفكار، وآراء، ونقاشات، وذكرى يُرَفه بها ساعة كَربٍ؛ فتتحوَّل بفعل الذاكرة إلى بسمةٍ.

وفيما يلي مَشهَد، ولا أروع مِن المسرحية التي يدعون "بهتانًا" أنَّها دمَّرتْ أجيالً... كتابة المُبدِع "علي سالم"، أدَّاهُ على خشبة المسرح في نسخته الحية المُمثِّل"عادل إمام" في دور(بهجت الأباصيري)، والمُمثِّل "نظيم شعراوي" فى دور(الأباصيري بيه)، والمُمثِّل "حسن مصطفى" في دور(حضرة الناظر).

المشهدُ:

الناظرُ(موجِّهًا كلامَهُ للطالب بهجت الأباصيري):

-وبعدين... مش ناوي تعقل؟.... مش ناوي تبطَّل تهريج؟... شاب فى سنكَ، مش قادر يبقى رَاجِل في تصرُّفاته، وفى كلامه.. إنتَ فاكر إن الرجولة

هي عدم الإحساس بالمسئولية؟

بهجت: اللي أعرفه عن نفسي إني حاسس بالمسئولية.

الأباصيري: مش باين أبدًا!!

بهجت: أنا تحت أمركم... عايزني أعمل إيه بالضبط علشان أبقى حاسس بالمسئولية؟

الأباصيري: تبطَّل الكلام الفارغ اللي بتعمله ده.... تذاكر وتاخُد ثانوية عامة... وتدخل كلية الصيدلة... أومال مين اللي حايمسك الأجزخانة؟

بهجت: مش حادخل صيدلة... ومش حامسك الأجزخانة!

الناظر: تبقى مش حاسس بالمسئولية.

بهجت: بالطريقة دى تبقوا بتبسطوا المسألة قوي.... المسألة مش سهلة للدرجة دى، يابا، طُول عُمركَ تفكَّر في اللي أنتَ عاوزه.... مافكرتش مرَّة في اللي أنا عاوزه!!

الأباصيري: عاوز إيه ؟

بهجت: عاوز أشتغل في البحر.

الناظر: تشتغل إيه في البحر ؟

بهجت: ما أعرفش ... أي حاجة.

الأباصيري: أي حاجة يعني إيه ؟

بهجت: ما أعرفش، ومتهيألي مسئوليتكم إنكم تساعدوني إني أعرف، أنا عاوز إيه بالضبط .

الناظر: حايتفلسف.... أومال ما بتنجحش في الفلسفة ليه؟!

بهجت: مفيش فايدة يا حضرة الناظر!!.... ماحاولتش تسمعني!.... كُلّ اللي فكَّرت فيه إنَّكَ تهزَّأني... (لهجته تكتسب رقة حالمة) .... كُلّ يوم، بروح المينا أَبُص للبحر..... للمراكب اللي رايحة واللي جاية... وأحلم.... أحلم إني إني فى يوم من الأيام حاركب مركب..... وأطلع البحر.... أشوف بلاد الدنيا.... أعمل حاجات كبيرة..... حاجات عظيمة.... هي إيه ؟ .... مش عارف؟ ... وده اللي معذِّبني!

الأباصيري: أحلام مراهقة ... (متباهيًا) ... أنا جدي الأباصيري الكبير لَمَّا فتح الأجزخانة.

بهجت (مقاطعًا): يا بابا، جدك الأباصيري الكبير، مافتحش أجزخانة ... ده كان دُكَّان عطارة.... وإسكندرية كلها عارفة كده... أنت بس اللي في مصر ما تعرفش ... وأنا لو نجحت فى ثانوية عامة مش حادخل صيدلة، لأني ثانوي أدبي... ولو كانت علمي برضو مش حادخل صيدلة.... مش عاوز أبقى صيدلي.... بأكره رِيحة الأدوية موت!!

الأباصيري: خلاص... تدخُل كلية تجارة، وتمسك محلات البقالة.

بهجت: مافيش فايدة!.... برضو بتفكَّر في اللي أنت عاوزه!... مش حاتفهموني!!

الناظر: أنت جاي تحاكِمنا يا ولد ؟!

بهجت: تحت أمركَ يا حضرة الناظر، عاوز إيه ؟ ... تلاقيكَ أنت راخر مش عارف عاوز إيه؟

الناظر: اخْرَسْ!!

بهجت: خِرِست!

القولُ الفصلُ:

نعمْ، أعترفُ أنَّ حقَّ الرد للتلميذ "الذي وُجِدَ غصبًا" قد أعطى لبعض الأوغاد وغير المستقرينَ نفسيًا مساحةً للنيل مِنْ مُدرِّسيهم، كما أعطى عُرْف حمل العصا "الموجود مسبقًا" لبعض المُعلِّمينَ المُطابِقينَ للصفات النيل مِنْ تلاميذهم بالمثل، وأنَّ بعض المُعلِّمينَ لهم ضحايا النظام التعليمي الفاشل، ويقعُ عليهم مثل ما يقعُ على معظم التلاميذ مِنْ ظُلم وتهميش.... وليس عدوًا لأولئك جميعًا، وسببًا رئيسيًا لتردِّي النظام التعليمي إلَّا شخصٌ عُنِي بأمورهم، ويتقاضَى على ذلك أجرًا، يستطيعُ تحسين الوضع، ولكنَّهُ لا يفعلُ؟!

مرحلة الطفولة المبكرة

يوم كُنَّا نصطادُ!

رغم قِلَّة المواضيع داخل ملف مرحلة الطفولة المبكرة، إلَّا أنَّ كُلَّ شيءٍ فيه -مع قِلَّة المكتوب عنه- قادر على أن يسرقني مِنْ وقتي الحاضر، والذي أعيشُ فيه؛ ومِنْ ثَمَّ يطير بي إلى أوقات أخرى ووقائع، هو ملفٌ لَهُ عليَّ -حين أحملُهُ- تأثيرٌ يماثِلُ تأثير السِّحْر، ذلك تقريبًا هو ما اختبرتُهُ، وأنا أقرأُ فقرةً داخل الملف كانتْ معنونةً -لحظة ما قرأتها- باسمِ "الصيد".

عرفتُ الصيد مبكرًا في حياتي.... عرفتُهُ منذ المرحلة الابتدائيَّة؛ حيثُ كان لي رفقاء صيدٍ أجتمعُ بهم ثُمَّ نذهبُ سويًا لنصطادَ.

وعرفتُهُ قبل ذلك؛ فإنَّ واحدة مِنْ أقدم الذكريات، والتي أحتفظُ بها في رأسي ذكرى لأخي الأكبر يركضُ فرحًا عبر الشارع، وفي يده صنَّارة يتدلَّى منها صيدٌ ثمينٌ.

أخذَ، وهو يركضُ يصرخُ بأعلى صوته، وصرختُ أنا مَعَهُ منجرفًا:

-أصطدنا قرموط!!... أصطدنا قرموط!!".

حدث ذلك الموقف قبل دخولي المدرسة، وأنا نفسي أستعجبُ أنِّي لا زلتُ حتَّى الآن أذكرُهُ!!

فرح أخي بصيده إلى درجة أنَّهُ تقريبًا أخبر عنه الجميع!!

ساعتها كانتْ عمتي الصغرى تعيشُ معنا، ولَمْ تتزوَّجْ بعدُ، ولمَّا دخل أخي عليها، أخذت السمكة منه، وطبختْها.

نظَّفتْها بالطبع، ثُمَّ وضعتْها أمامَهُ؛ ليأكل منها، وجلستُ أنا معه؛ لآكل منها، على الرغم من أنَّي ساعتها لَمْ أكنْ أحبُّ السمك، ولَمْ أكنْ أستلطفُهُ!!

عمتي تلك تعيشُ في القاهرة الآن على بُعد آلاف الكيلومترات، وأكبر ابنة لها تبلغُ مِن العُمر ستة عشر عامًا، وهذا يبيِّنُ أنَّ تلك الذكرى حدثتْ تقريبًا في عام (٢٠٠٥)، كان عُمري حينها مِنْ خمس إلى ست سنواتٍ.

ثُمَّ بعد ذلك دخلت المدرسة، والتى لَمْ تكنْ مُحبَّبة إليَّ مُعظم الوقت؛ بسبب قسوة بعض المُدرِّسينَ معي، وغلظتهم؛ فظللتُ سنةً خلف سنةٍ أهربُ منها إلى أشياء أخرى أحبُّ إليَّ مثل الصيد.

وفي فترة مِن الفترات أثناء المرحلة الابتدائية حدث أنْ أصبح الصيد موضة رائجة بين الفتيان الصغار، ولقد عرفنا نحن في تلك الأيام مفهوم الموضة؛ إذْ فجأةً يتَّجهُ الذوق العام نحو شيء مُعيَّن، ويصبح الجميع مُلتزمينَ به، ويقلِّدُون بعضهم البعض في افتعاله، حتَّى، ولو لَمْ يكنْ بالضرورة يصحُّ.

حدث هذا ذات مرَّة، حينما اجتاحتْ حُمَى ركوب العَجَل قريتنا؛ فأصبحتْ شوارعُها بين ليلةٍ وضُحَاها تموجُ بالفتيان الصغار الذين يركبون العَجَل!

وفي كُلِّ ساعة من اليوم يروحون ويجيئون بلا توقُّف.

عن نفسي لَمْ أشتركْ في حُمَّى ركوب العَجَل - وإن مستَّني شرارتُها- لكني كنتُ أوَّل المُلتحِقينَ بحُمَّى الصيد، حينما بادرت بالظهور... أعتدنا أن نصنع صنانير صيدنا مِنْ جريد النخل، نقطعُهُ بأطوال مُعيَّنة، وننظِّفُهُ مِن الشوك والخوص ثُمَّ نربطُ به سبيبًا، ونعلِّقُ بالسبيب صنارةً، والطُعْم كِسْرة خُبز نليِّنُها بالماء أو دود الأرض، والأفضلية دومًا لدود الأرض؛ فإنَّ الخبز إن طال الوقتُ عليه في الماء يتفتَّتُ، ولا يتماسكُ.

أمَّا الدودُّ، هذا نحشوهُ في الصنارة حشوًا؛ حتَّى يصيرُ جزءًا منها، وأيُّ سمكة تهمُّ بابتلاعه تُعلَّق في الصنارة، ولا تستطيع بعد ذلك الهروب.

كُنَّا في تلك الأيام نصطادُ لغاية المتعة فقط لا لشيء آخر، وقد يحدثُ أن يعكف الواحدُ منا لساعات عِدَّة على الصيد ثُمَّ بعد أن ينتهِي يُلقِي بصيده مرَّة أخرى إلى الماء!!

أو نأتي بالسَّمك نخضعُهُ لجلسات تشريح مُطوَّلة، أو نأخذُهُ معنا إلى البيت، نطعمُهُ للقِطط!

لَمْ نُحبذْ وضع السَّمك في أحواض؛ لأنَّهُ لَمْ يكنْ يحتملُ العيش خارج المياه، والتى اعتاد العيش فيها، حتَّى وإن توفَّر لَهُ الأكل يموت!

ومرَّات أخرى نصطادُ السَّمك، ونضعُهُ في أوعية مليئة بالماء، نحافظُ عليه حيًا لأطول فترة ممكنة، نلعبُ به ونراقبُهُ حتَّى يموت!

فجميعُ صيدِنا في النهاية يموتُ هنا!!.... حيثُ تنتهِي المُتعة.

مرحلة الطفولة المبكرة

هَكَذَا أتذكَّرُ الناسَ...بنظراتِهم

ليس كُلُّ ما جاء في ملف مرحلة الطفولة المبكرة يمكنُ قراءتُهُ؛ فالملفُ، وعلى كثرةِ ما جاء فيه مِنْ كتابةٍ ليس كُلُّهُ كتابة؛ فإنَّ به لطخات مِن الحبر لا تُقرَأ بل تُحَسُّ، فكما يمرِّرُ فاقد البصر يدَهُ على الكتابات البارزة المكتوبة بطريقة "برايل"؛ ليقرأها مُعتمِدًا بذلك على حاسة اللمس لا البصر، أمرِّرُ أنا قلبي على لطخات الحبر تلك؛ فتنكشف لى كبالونِ ماءٍ ثقبتُهُ بإبرةٍ؛ فانسكب ماؤه كزجاجة عِطْرٍ حطَّمتُها على الأرض؛ ففاحتْ رياحينُها.

هكذا لطخات الحبر تأتي بمفعولِها صوبَ قلبي؛ فتحوطُهُ بمجموعة مِن مشاعر قديمة تذكِّرُهُ بأماكن، وأحداث، وأشخاص... ونظرات، والنظرات تصدرُ مِن العين، والعينُ أصدقُ مِن الفعل والقول، تُظهِرُ ما بداخل الإنسان رغمًا عنه، حتَّى، وإن كان يجاهدُ في إخفائه.

مُعظم الأشخاص أتذكَّرُهم بنظرةٍ رمقوني بها يومًا، أتذكَّرُهم بنظراتهم لا بأقوالهم وأفعالهم!

فإنَّ القلبَ إن غلب عليه السُّوء والدناءة عجزت العين عن الادعاء بالعكس، وتصبح مرآةً للروح والفِكر، وإن غلبت عليه طيبةُ القلب والمروءة، وطابق باطنُ الإنسان ظاهرَهُ، هي كالماء الساكن؛ حيثُ لا لجاجة

فيه، ولا اضطراب، تراها، وكأنَّها الماءُ العذبُ، وإنْ لَمْ تذقْهُ.

بعضُ الأشخاص مُهيَّئُون لقراءة النظرات، ويهتدون بها في مُعظم الأوقات دونًا عن طرق التواصل الأخرى، أتذكَّرُ في المرحلة الابتدائيَّة أن اتهمَّني بعض زملاء الفصل بالشيطنة والشقاوة، فما كان من المُدرِّسة إلَّا أن ألقتْ نظرة سريعة عليَّ ثُمَّ أمرتْني أن أجلس قائلةً لهم:

– لا يبدو كذلك بالنسبة لي؛ فعيناهُ صادقتانِ جدًا!

وقد كانتْ في لحظتها تلك مُحقِّة، على الرغم مِنْ أنَّها لَمْ تطلبْ سماع حِجَجهم، وبدون أي معرفة سابقة بي.

إنِّي، وحينما أنفضُ رأسي يوميًا قبل النوم، فلا يتناثرُ منها إلَّا نظرات..... نظرات حُب، وأخرى كراهية.... ازدراء... وفخر.... نظرات يبيِّنُ اللهُ بها ما في نفوس القوم دون أن يفضحَهم، وكأنَّهُ عزَّ وجلَّ يعطني رسالة: أن أحذرهم، ويحافظ على السر دونما إفشاء.

إنَّ الإلهَ الذي حرَّم الظُّلم على نفسه، لا يهونُ عليه أن يفضح عبادَهُ، حتَّى، وإن كانوا عُصاةً وفاسدِينَ، حتَّى تحل عليهم حكمتُهُ، بأن يفضحُوا أنفسَهم بأنفسِهم، وهذا هو السائدُ.

إنِّي، وحين أنظرُ إلى الحياة، لا أرى فيها سوى بساطة، ولا أرى في البساطة سوى الجَمال، البعضُ خالفُوا ذلك، وسعوا لانتزاع جَمالها بالغلظة والقوة، فإذا بها لا تبادلُهم إلَّا بردَّاتِ فعلٍ مُشابِهةٍ، وكُلَّما اشتدُّوا عليها اشتدَّتْ

عليهم؛ فيصيرُ لها عليهم مِن القُبح ما لا يحتملُوهُ؛ ولهذا كانت الحياة أجمل الأشياء، وأقبحها، ليس تناقضًا، ولكنَّ هذا هو الكَمَال، ولا يكتملُ الكَمَال إلَّا بنقصان!!

وإنَّما فَهْم الدنيا اثنانِ، على خلافِهما يجتمعانِ، وفرَّ منها اثنان لا يجتمعانِ إلَّا على الوفاق، فإذا اختلفَا غدًا افترقَا... وهكذا هي الدُّنيا مع كُلِّ واحدٍ منا، رغم ما بيننا وبينها من التباعُد والتنافُر، لا بُدَّ أن نجد طرقًا للتوافق، ولا بُدَّ أن يكون فيما بيننا، وبينها حلول.

أنا والكتبُ

أوَّلُ عهدِي بالكتب، كنتُ أبلغ مِن العُمر أربعة عشر أو خمسة عشر مِن الأعوام، وعرفتُها أوَّل ما عرفتُها مِنْ خلال الكُتُب الإلكترونيَّة بصيغة الـ (pdf)؛ فصرتُ كالولهانِ أجمعُها مِنْ هنا ومِنْ هناك، وأحملُها جُملةً واحدةً.... أعمال كاملة، ومُجلَّدات.

ورحتُ أرتِّبُها، وأقرأُها باستفاضةٍ، ولَمْ يهدأْ لي بالٌ وقتها، إلَّا بعد أن كوَّنتُ مكتبة إلكترونيَّة تضمُّ أكثر مِنْ ألف وستمائة كتاب، ومؤخرًا قاربت الألفينِ كِتَاب، وهي مُنظَّمة في مُجلَّداتٍ، ومُنتقَاة بعنايةٍ شديدةٍ لا بعشوائيَّة.

لَمْ أتعرَّفْ على الكُتُب الورقيَّة عن قُرب، إلَّا بعد خروجي للعمل في سن السابعة عشر، ومِنْ وقتِها إلى الآن لَمْ أتوقَّفْ عن شرائها، وأكادُ أجزمُ أنَّهُ - تقريبًا- كُلُّ قبضٍ حصلتُ عليه منذ ذلك الحين كان له نصيبٌ من الكُتُب؛ فلا شيء حقيقةً يسلبُ مني عقلي، ويرقُّ لَهُ قلبي مثل: منظر الكُتُب على أرفف مكتبة، أو على قارعة طريق، أو قُبالة رصيفٍ!

وعلى كثرة المدن التي زرتُها منذُ وُلِدْتُ ليستْ لي في أيِّها ذكريات حقيقيَّة، إلَّا تلك التي صادفتُ فيها كُتُبًا. وليستْ فقط المدن، إنَّما أيامي ككُلٍّ؛ فتلك لو أنِّي لَمْ أتعرَّفْ أبدًا فيها على الكُتُب، ما كنتُ لأعرف فيما كانتْ ستنقضِي!.... وفيما وقتي فيها يزول؟

كيف أعلمُ أنَّ قارِئًا مَا أُعْجِبَ بقصةٍ كتبتُها؟

إنَّ الإجابة على هذا السؤال ستكونُ مثلها مثل الإجابة على سؤال آخر، وهو: "كيف أعرفُ أنَّ قصةً ما كتبَها كاتبٌ آخَر أعجبتْني؟".

الجواب هنا يكونُ في غاية البساطة:

فإنِّي حينما أقرأُ قصةً، وتعجبُني على نحوٍ جيدٍ، أنسَى معها أنِّي أقرُأ؛ فأجدُني حينما أقرأُ لا أرى أسطرًا، وكلمات، وعلامات ترقيم، وإنَّما أرى أمامي صورة حيَّة للمَشهَد المكتوب، أرى الشخصيات، والأحداث، والأماكن رأي العين تمامًا مثلما أشاهدُ مسلسلًا أو فيلمًا.

النصُّ الجيدُ يفرضُ نفسَهُ علينا، ويأخذُنا معه -أثناء القراءة - في دوَّامات ذهنيَّة ننسَى معها أنَّنا نقرأُ.

وحينما أنتهِي مِنْ قراءة شيءٍ مُماثِلٍ يغيبُ عن ذهني النص، ولا يتبقَّى لَهُ غير الشخصيات والحوارات بينها، والأحداث، والأماكن يتذكَّرُها، كُلَّمَا جنحتْ نفسي إلى ذلك الشيء المقروء.

وحينما أعقِّبُ على الشيء الذي أعجبتْني قراءته، أذكرُ الأحداث والإنسانيات فيه، ولا أتَّجِهُ إلى نقد لغة وطريقة كتابة، وفنيات.... العكس مِنْ ذلك، هو ما يحدثُ، حينما أقرأُ شيئًا، ولا يعجبُني حقًا.

أذكرُ أنِّي قرأتُ مرَّة شيئًا كتبتُهُ على مجموعة مِن الزملاء، وكان ذلك الشيء المكتوب يتحدَّثُ عن خيانة تحدثُ في الريف؛ فهو عن شخصيتينِ رئيسيتينِ، هُمَا: الشاب "سعد"، وزوجته، والتي هي في الأصل ابنة عمه "رقية".

كان "سعد" دميمًا، لا يتمتعُ بأي جَمالٍ؛ ولهذا تكرهُهُ "رقية"، وتتمنَّى الزواج مِنْ غيره... إلى آخره.

قرأتُ ذلك العمل على زملائي كُلٍّ منهم على حِدَة، والشيء المشترك بينهم الذي لاحظتُهُ، وأنا أقرأُ، هو: أنَّهُ بعد قراءتي العمل لهم، يناقشوني في أحداثه لا فنياته.

قال الصديقُ الأوَّل عن "سعد"، أنَّهُ "ليس رجلًا"، وذلك حينما ارتكبتْ زوجته "رقية" فعلًا أشبه بالخيانة، ولَمْ يفعلْ "سعد" حيالَهُ شيئًا.

أمَّا الصديقُ الثاني حينما قرأتُ لَهُ العمل، أثنَى عليه مُدَّة ثُمَّ نظر لي، وقال:

-شيء واحد أنا متأكِّد مِنْهُ في قصتكَ تلك، وهو: أنَّ رقية تلك فورتيكة!

(وكان يعني بهذا: أنَّها شديدة الجَمال)، ولَمْ أكنْ أنا قد ذكرتُ ذلك فى العمل بشكلٍ صريح، ولَمْ آتِ على ذكره أو حتَّى الإشارة إليه.... ولكنَّ هذا ما رآهُ ذلك الصديق فى ذهنه، فإنِّي حينما قرأتُ النص عليه لَمْ يرَهُ نصًا، وإنَّما رأى صورةً حيةً للمَشهَد تتشكَّلُ أمامَهُ، وعلى الرغم مِنْ أنِّي لَمْ أذكرْ في العمل أنَّ شخصيةٍ ما شديدة الجَمال، إلَّا أنَّهُ هكذا رآها، والذي عَلِقَ بذهنه في النهاية، هو: المَشهَد، وليس النص.

وهكذا أعلمُ أنَّ قارئًا مَا أُعْجِبَ بشيءٍ كتبتُهُ، بأنْ يعلقَ فى ذهنه المَشهَد لا النص والإنسانيات في العمل المقروء لا الفنيات.

الزنط الميري

ولَمَنْ لا يعرفُهُ "الزنط"، هو: المَعطِف العسكري المُموَّه، والذي يرتديه الجنودُ شتاءً، أقولُ: جنود، ولستُ أقولُ: عساكر؛ لِمَا بين الكلمتينِ مِنْ أثر نفسي، ودلالاتٍ.

حديثي اليوم يأخذُني إلى زنط واحد بعينِهِ، وليس أي زنط، والسلام.

معلوم لكُلِّ مَنْ دخل الجيش منا أنَّ الجميع يستلمونه مع المِخْلة في أوَّل أيام الخدمة العسكريَّة.

زنطي الذي استلمتُهُ، مكث معي بعض الوقت، وقد كان زنطًا كافيًا لي، وقد جنَّبني البرد وآثاره، ثُمَّ اضطررتُ أن أستبدلَهُ بواحد آخر أخف منه، وأنحف قد ناسبني بشكل أفضل، أخذتُهُ مِنْ صديقٍ لي قبل شروعه في تسليم المِخْلة بأيام ثُمَّ عرجتْ به على ترزي الكتيبة، وطلبتُ مِنْهُ أن يحيك داخلَهُ جيبٌ خفيٌّ، أعطيتُهُ كيسًا أسود مِن القماش، وطلبتُ منه أن يحيكَهُ داخل الزنط على شكل جيب، ولَّما استغرب حجمَهُ، والذي أردته عليه، ومدى اتساعه أخبرته أنَّهُ للتعيين، ولَمْ أكنْ؛ لأخبرَهُ بالطبع أنِّي أردتُ أن أحمل داخلَهُ كُتُبًا؛ كي أقرأها فى الخدمة. ما كنتُ لأخبره بنيتي تلك؛ لأنَّ الكُتُب ممنوعة داخل المعسكر، ممنوعة إلى درجة الصرف مِن الخدمة العسكريَّة، وإلى درجة الحبس!!

يوم يلي يوم، بعد ذلك رحتُ أدسُّ الكُتُب فيه دسًا لحظة خروجي، ووقتما أطمئنُ على نفسي، وعليها فى الخدمة أقرأُها!!

تلك فترةٌ أدينُ فيها للكُتُب بالكثير؛ لأنَّها أنستْني حينما استوحشتُ كُلَّ شيءٍ حولي، وأعطتْ لأيامي - الشبه ضائعة عليَّ- شيئًا مِن القيمة، وسهَّلت الأيام، ومررَّتْها؛ حيثُ كانت لا تمرُّ.

كنتُ أبتاعُها بعد كُلِّ أجازةٍ، وأنا ذاهبٌ إلى المعسكر، وأثناء عودتي آخذُ ما قرأتُهُ منها، وأودعُهُ إلى جانب الكُتُب المقروءة الأخرى في البيت.

هي فترةٌ انكببتُ فيها على المجلَّات الثقافيَّة، مثل:(الدوحة، والعربيَّة، والعربي، والشارقة الثقافيَّة)، وانكببتُ فيها على الكُتُب المخفضة مُعظمها لهيئة قصور الثقافة، وتلك كنوز بأسعار رمزيَّة.

عجيب أنَّهُ رغم ما ألمَّ بي في تلك الفترة مِنْ قحطٍ، كنتُ أجدُ مالًا للملابس وللكُتُب، فإنَّهُ طوال عمري لا يذهبُ مالي إلَّا للملابس، والكتب.

زنطي ذلك لازمني فى خدمتي حتَّى نهايتها، وقد تعلَّقتُ به أشدَّ ما يتعلَّقُ الجندي بزنطه الذي يقيه البرد، وتعلَّقتُ به أشد ما يتعلَّقُ القارىء بحافظ سره، وحامل كُتُبه.... لَمْ أسلِّمْهُ إلى جانب بقية متعلقات المِخْلة؛ حيثُ كان قد ناسب أحد الجنود الزملاء، فأخذَهُ مني، وأبدلني بواحدٍ غيره لا يناسبُهُ؛ لأسلِّمَهُ.

-للأسف- لَمْ أحتفظْ به، وتمنَّيتُ لو أنِّي قد فعلتُ.... لكنَّ ذكراه باقية

عندي لا تغيبُ!!

القَارِئ المُتعجِّل

يقولُ عن الكتاب الذي قام بقراءته للتو: أَنَّهُ قد أنهاهُ في جلسة أو جلستين، ويلمِّحُ أنَّ وقت قراءته لهذا الكتاب هو أقلُّ بكثيرٍ مِن الوقت المُفترَض قراءته فيه، يظنُّ بذلك أَنَّهُ قد أحسنَ صنعًا، وهذا خطأ.

لماذا خطأ؟

المعلومة تحتاجُ لوقتٍ؛ كي تُهضَم، والكتابُ يحتاجُ لجلسات عِدَّة مِن القراءة؛ كي يطول مكوثنا معه... الحالة التى نشعرُ بها عند قراءة كتابٍ ما يجب أن تطول، نتوقَّف عند الأشياء المهمة، نفكِّرُ فيها، نناقشُها، ونتخيَّلُها. لا يكفينا كقُرَّاء أَنَّنا علمناها وفقط، بل يجبُ أن ندعها تتفاعَل مع خلايا أدمغتِنا.

ومِنْ ثَمَّ نعرضُها على الناس بالحديث أو الكتابة، ونناقشُها معهم، إن لَمْ نجدْ شخصًا نناقشُ مَعَهُ ما قرأناه، نناقشُهُ على الأقل مع خيالٍ وهمي.

تريدُ أن تبرهن بسرعة قراءتكَ للكتاب على دسامته وحلاوته، بينما كان الأجدرُ بكَ -هذا إن كان ما قرأتُ بحقٍّ دسمًا وحلوًا - أن تتريث عليه، تمضغَهُ ببطء، تهضمَهُ، وتدع لحظات متعتكَ به تطولُ، لا أن تدعه يمرُّ على حواسكَ سريعًا، كما لو كان لُقيمة سريعة تسدُّ بها جوعكَ في وسيلة مواصلاتٍ، بل اجعلْهُ الوجبة التى يكافئونكَ بها عند العودة إلى البيت بعد غياب طويل.

رفقاءُ الكُتُبِ

الكُتُبُ أثناء فترة خدمتي العسكريَّة لَمْ يقتصرْ تأثيرُها على أنَّها قد أعطتْ لأيامي قيمةً، وأجبرتْها أن تمرَّ مرورًا هينًا، رغم أنَّها، وكأيام ليستْ بالهينة، وإنَّما أيضًا قد جذبتْ إليَّ نوعًا مِن الزملاء هُمْ أكثر قُربًا للكُتُبِ مِنْ غيرِهم، وفي مرحلةٍ أو أخرى مِنْ حياتهم صادفُوها.

أذكرُ منهم "مصطفى أبو شنب" أوَّل مرَّةٍ رأيتُهُ فيها في مركز التدريب، وقد كان في يده كتابٌ، حينما رأيتُهُ، علمتُ أنَّهُ بطريقةٍ أو بأخرى سيجمعُني به حديثٌ عن الكُتُب، وهو ما حدث بعدها بفترةٍ؛ فالتمستُ فيه حُبًّا للقراءة والفلسفة، ووَلَه غير طبيعي بالكاتب الرائع "يحيى حقي".

أعرتُهُ يومًا رواية "حديث الصباح والمساء" للكاتب القدير "نجيب محفوظ" ،فجاءني بعدها؛ ليقول لي:

-إنَّ أكثر شيء مُمتع في الرواية، هي: تلك التعليقات التي دوَّنتَها أثناء قراءتي لها، وأنَّها مصدرُ للمزاح والتسلية بالنسبة لَهُ أكثر من موضوع الرواية نفسه!

عرَّفني بعدَها على زملاءٍ لَهُ، كانتْ لهم ميولٌ نحو الكُتُب، وقد كان "الميري" آخر عهدي به، ولَمْ نتقابْل بعدَها.

وأذكرُ كذلك "أحمد سعداوي"، ولقد كان شخصيةً آسرةً، واسع الاطلاع على الدِّين، ومُعظم كلامه عنه، رغم أنَّهُ لَمْ يكنْ موضع دراسته، ولقد تجاوزنا أنا وهو حَدَّ الزمالة إلى الصداقة؛ فلزمني في مُعظم خدماتي، وتشارك معي مُعظم كُتُبِي، واعتمدتُ على رأيه وقتها في الأشياء التي كنتُ أكتبُها.

أتذكَّرُ أنَّهُ كان يتمتعُ بصوتٍ غاية في الرقة والعذوبة، وقد كان كثير الغناء لأغانٍ هو كتبَها لنفسِهِ، في يوم من الأيام، وأثناء قراءتي لفصلٍ ما في كتابٍ ما، وقعتْ عيني على كلمات أغنية "يا بهية، وخبِّريني" ثُمَّ ناولتُها لَهُ، فراح يُغنِّيها بطريقته الفذة، وأنا بجانبه أصفِّقُ!!

هو واحدٌ مِن القِلَّة القليلة الذين اعتقدتُ أنَّ معرفتي بهم لن تنقطع بتسليمنا للمِخَل... ومع ذلك كان "الميري" آخر عهدي به، ولَمْ نتقابلْ بعدَها.

أذكرُ "عمرو سليم"، ولقد كان قاهريًا بشوشًا.... عرفتُهُ كعسكري مُستجَد، وأوَّل خدمة له في "الميري" صدفة كانت معي، وجدني جالسًا وحدي، وأرطنُ مع نفسي بكلمات أغنية (hello) لـــ (adele)، وقد كان يعرفُها، فراح يراجعُني فى نطقي لها، ويطلبُ مني أن أتهجَّى له كلماتها، وعمَّا تعنيه كُلّ واحدة منها.

أجبتُهُ باستفاضةٍ وسعةِ صدرٍ، فأخذنا الكلام إلى الكُتُب، وحديث الكُتُب.

أخبرني أنَّهُ ذهب مرَّةً إلى زيارة واحد مِنْ أساتذته؛ فاندهش مِنْ حجم

الكُتُب لديه، ومِنْ منظر مكتبته الخاصَّة، يقولُ لى: أنَّ ذلك المَشهَد هو أوَّل عهدِه بالكُتُب، وأنَّهُ منذ ذلك الحين أيقن أنَّ في العَالَم أناسًا يكتنزون الكُتب، ويعزُّونها.

تبادلنا أنا وهو مرَّة كتابين؛ إذْ أعطيتُهُ رواية "الفيل الأزرق" لـ"أحمد مراد"، وأخذتُ منه "الجريمة والعقاب" لـ"ديستويفيسكي"، تبادلنا حسابات الفيس بوك، ونتفاعلُ مع منشورات بعضنا البعض كُلَّ حين، إلَّا أنَّهُ، وكغيره "الميري" آخر عهدي به، ولَمْ نتقابلْ مِنْ وقتِها حتَّى الآن.

وهناك كثيرُون غيرُهم ليستْ سيرتهم بأقل مِنْ سيرة مَنْ ذكرتُ بالأعلى، غير أنَّ المقال قد لا يتسع للجميع. فلطالما كان مُحبو الكتب ينجذبُون إليَّ، وأنجذبُ إليهم، ويجمعُنا حديثًا عنها.

أذكرُ فندق (mirage bay)، وهو أوَّل مكان عملتُ به بعد انتهاء خدمتي العسكريَّة، وقد صادفتُ فيه الزميل "أحمد ناجح صيد"، وذلك لَمْ يكن قارئًا فقط، وإنَّما كاتبُ أيضًا، ولَهُ أعمال منشورة، وعلى غير تدبيرٍ مِنْ أي منا كان معي في نفس القسم، وفي نفس غرفة المعيشة!!

أذكرُ الصديق"محمد علي"، وذلك قابلتُهُ في محل العمل الذي تلى ذلك المكان، وهو قارئٌ نهمٌ، غير أنَّ مُعظم قراءاته كانتْ ذات طابع سياسي، وعلى غير تدبير مني أو منه كان أيضًا يشاركُني غرفة المعيشة!

يوم علمتُ ولعَهُ بالكُتُب، أخبرتُهُ أنِّي دائمًا ما أتلاقَى بهؤلاء؛ فأجاب بما

معناه: إنَّها هكذا الحياة، تجبرُ أصحاب الميول الواحدة على التلاقِي.

ثُمَّ سكت لبُرهةٍ، وقال: حتَّى الحشَّاشون!

فضحك، وضحكتُ.

في نفس غرفة المعيشة التي آوتْني أنا والصديق "محمد علي"، كان هناك الصديقُ "إسماعيل"، ذلك كانتْ قراءاتُهُ في كُتُبٍ تتحدَّثُ عن مجال عملي وعمله، وهو كذلك مجالُ الصديق "محمد علي".

كونُنا جميعًا طُهاة، وما تضمنتْهُ الكُتب عبارة عن أُسس العمل الفندقي، ومجال المطاعِم، وطُرق الطهي الحديثة، والوصفات الأم التى جاءتْ منها معظم الوصفات.

أوَّلُ شيءٍ فعلَهُ لحظة دخوله للغرفة للمرَّة الأولى، هو: أنَّهُ جاء بتلك الكُتُب، وأسندها جانبًا، بعد فعلتِهِ تلك، كنتُ قد تعرَّفتُ على جزء كبير من شخصيته، ولَمْ أحتاج أن أسمع منه الكثير، بالطبع كُتُبُهُ تلك قرأتُها في أقرب وأسرع وقتٍ، ولكَمْ كان مندهشًا!!

أذكرُ هنا كلمةً للكاتِب الراحل"سامي فريد"، كان يتحدَّثُ فيها عن صُحبتِهِ يومًا للكاتِب الراحل"يحيى حقي"، فيقولُ:

-أثناء سيرنا في الشارع، كأنَّ الأرض تفرزَ أدباءَ وفنَّانينَ، كنتُ لا أراهم، وأنا أسيرُ بمفردي... وكأنَّهم على موعدٍ معنا.... وجدتُ عالمًا ينفتحُ أمامي،

وأنا أسيرُ إلى جانب يحيى حقي!

تلك الكلمات عنهما ذكرَها الكاتِب "صلاح معاطي" في كتابه:"وصية صاحب القنديل"، وما ذكرتها هنا، إلَّا لأسندَ بها مقالتي بالأعلى، وأنَّ أصحاب الميول الواحدة دائمًا ما تجمعُهم الصُّدف بغير التدبير، خاصَّةً، وإن كانتْ تلك الميول عبارة عن كُتُبٍ... قُرَّاء كانُوا أم كُتَّاب.

واستكمالًا لِمَا بدأتُهُ في أوَّل المقال عن قراءتي للكُتُب داخل المعسكر، أقولُ:

-إنَّ الأيام لَمْ تكنْ تمرُّ دومًا كالسكين في الحلاوة؛ فقد قُبِضَ عليَّ فى يوم كنتُ داخلًا فيه إلى المعسكر بكُتُبٍ، واقتادوني بعدها إلى القائد، والذي كان جالسًا مع عدد من أصدقائه، فراح يسألني، ورحتُ بكُلِّ صدقٍ أجيبُهُ، فما كان منه في نهاية حديثي معه إلَّا أن قال:

- لا أدري تلك الأشياء التي تحملُها، تبدو لي كمصيبةٍ، ولكن....

ثُمَّ أمرَ بالكُتُبِ أن تُؤخَذ مني، وتُصَادَر، ولَمْ يترك لي يومها إلَّا كتيبًا صغيرًا، كان عن قواعد اللغة العربيَّة.

تلك الكُتُب التي صادرها، بقيتْ هناك حتَّى انتهاء مدة خدمتي العسكريَّة، ولو كنتُ طلبتُها حينها لأخذتُها.... لكني جبنتُ عن ذلك لحظة ما حملتُ شهادتي فى يدي، وكُلُّ ما أردتُهُ وقتها، هو: الخروج.

لعلَّ أحدَهم أخرجَها مِن الخزنة بعد ذلك، وهو على الأرجح قد حدث،

إلَّا أنَّها، وبالنسبة لي ستبقَى هناك إلى الأبد.... إلى آخر الزمن - عالقة- في خزينة المُعسكَر!!

هَوَاجِس لديَّ تؤكِّدُها قِصَّة

إنَّ السُّرعة التي بات يسيرُ بها هذا العَالَم تبعثُ على الخوف، وهو يسيرُ؛ إِذْ يسيرُ يومًا بعد يوم؛ فيزيد اقترابًا مِن الرذيلة والانحلال، القِيَمُ تتحطَّمُ، والأخلاق تموتُ، والطيِّبُون قِلَّة!!

إنِّي أنظرُ حينما أنظر إلى هذا العَالَم نظرة نوستاليجيَّة حزينة، أحنُّ بها إلى ماضٍ ليس ببعيدٍ، وأحزنُ لهذا الحاضر، وأرقبُ القادم مِن الأيام بشيءٍ مِن الريبة والتوجُّس.

في قصته "أمي والكارثة الكونيَّة"، والتي نُشِرَتْ في مجلَّة "الثقافة العربيَّة"، العدد (٥٣٢)، يحكِي الكاتِب السعودي "خالد السعيد الداموك" قصة خياليَّة علميَّة، تدورُ أحداثها عن كوكب عملاق فى مجرَّة قريبة انفجر؛ فأحدث خللًا في النظام الكوني، وبسبب اختفائه هذا اضطربت الكواكبُ في نظام جاذبيتها، وأخذتْ تتهاوَى لأسفل بلا توقُّفٍ، ومعها الأرض.

ماذا حدثَ بعدَ ذلك؟

يقولُ الكاتِب عن ذلك:

-على الأرض شعرنا باختلافٍ في التوقيت مع هذه الكارثة؛ فالأرضُ راحتْ تدورُ على محورها، وعلى الشمس بسرعةٍ مخيفةٍ أصابتْنا في الأيام الأولى

بالدَّوار، ولكننا سرعان ما اعتدنا عليها، ونتيجة لهذا الدوران المُتسارِع،؛ فإنَّ اليوم تقلَّص، وأصبحتُ الشمسُ تمرقُ في السماء كرميةٍ، لَمْ يكنْ يستغرق وجودها فى السماء سوى لحظاتٍ منذ شروقِها، وحتَّى غروبها، قبل أن تختفِي ليلًا للحظاتٍ أخرى ثُمَّ تعود للظهور بسرعة.

الفرضيَّةُ العلميَّةُ...

الفرضيَّة العلميَّة التى بَنَى الكاتِب قصتَهُ عليها، هي: أنَّ الكوكب سيستمرُّ في السقوط؛ وبالتالي في سُرعة دورانه حول محوره، وحول الشمس، حتَّى تصل سُرعة دورانه إلَى سُرعة الضوء أو تقاربها، وتلك سُرعة يتوقَّفُ الزمن فيها.

تلك الفرضيَّةُ أصابتْ جموع العَالَم كُلِّه بالهلع حسب ذكر الكاتِب فى القصة، وهذا يشابِهُ ظني أنا الآن؛ فأنا أرى أنَّ العَالَم كُلَّما توغَّل في الرقمنة، وانخرط في حياته التقنية السريعة، زاد انحلالُهُ، ودُمِّرَتْ قِيَمُهُ، وضاعت الأخلاقُ فيه؛ فهو يسرعُ نحو أجله، وليس العكس، ولنا في هذه الأيام عبرةٌ؛ فهي مقياس للقادم، ومُنبِّهاتٍ لِمَا سوف يحدثُ، وما لا أرجوه أن يحدث.

مستقبلٌ أحسُّهُ قاتمًا ومظلمًا!

مستقبلٌ، لعلِّي أكرهُ قدومَهُ!!

الاستهانةُ بجُهد الآخَرينَ

واحدة مِن السلوكيات التي أعدُّها مِنْ سُوء الأدب، وهي: الاستهانةُ بجُهد الآخرينَ، وإبداعاتهم... أذكرُ أنِّي حينما كنتُ عاملًا في إحدى القُرَى السياحيَّة فترة ما قبل الجيش، وقُرب الساعة الواحدة ظهرًا - في أحد أيام تلك الفترة- صعدتُ مع نفرٍ مِنْ زملائي إلى كافيتريا العامِلينَ؛ لتناول وجبة الغداء.

وهناك وقف أحد الشيفات الذين أعدُّوا تلك الوجبة أمامَنا، وشرع يناولُها لنا واحدًا تلو الآخر... أخذ أحدُ الزملاء العامِلينَ قطعة الدجاج مِنْ وجبتِهِ، نظر لها بامتعاض، شمَّها، ثُمَّ ألقَى بها في سلة النفايات أمام أعين الشيف الذي أعدَّها، وناولها لَهُ عن طيب خاطر!!

موقفٌ لَمْ أفهمْهُ كما لَمْ يفهمُهُ أيٌّ مِن الحاضِرينَ؛ إذْ أنَّهُ لَمْ ينتقد الطَّعام، ولَمْ يفتحْ فمَهُ، حتَّى لا قبل، ولا بعد إلقائه في سلة القمامة..... ذلك الموقفُ الذي بدر مِنْ ذلك الزميل العامل قد ضايق الشيف بشدة، وضايقني أنا كشيفٍ مثلِهِ، وقد حسبتُهُ مِنْ سُوء الأدب، وسُوء الأدب لا يأتِي إلَّا مِنْ جاهلٍ بالأدب وقيمته.

الانتهازيون

لي صديقٌ مداومٌ على فعل الخير، وأنا أستحسنُ ذلك منه، وأحبُّهُ، لكنَّهُ أيضًا مداومٌ على الحديث عنه، والتَّباهِي به، وذلك ما لا أستحسنُهُ منه، ولا أحبُّهُ.

لعلَّ لصديقي نوايا طيبة – وهو على الأرجح كذلك– لكنَّ معظمَ الناس الآخرينَ الذين يفعلون الخير، ويتحدَّثُون عنه بصدورٍ منتفخةٍ، ليستْ لهم أية نوايا طيبة؛ فهُمْ يتخذُون العمل الخيري تجارةً ينتفعونَ منها!

يقايضونه بالمجد والفخار!

يذكِّرُني ذلك بموقفٍ يحكيه الناس عن تلك الجمعية الخيريَّة التى شرع أعضاؤها ، في أحد الأيام، وفي إحدى القُرَى يوزِّعُون أغطية شتويَّة على الفقراء، وفجأةً حدث شيءٌ لَمْ يكنْ في الحسبان؛ حيثُ قد تعطَّلت الكاميرا التي جلبُوها معهم؛ فلَمْ يستطيعُوا توثيق عملهم الخيري؛ لذلك جمعُوا الأغطية مرَّة أخرى مِن الناس، ووعدوهم بأنَّهم سيوزِّعُونها عليهم مرَّة أخرى، حينما تعملُ الكاميرا ثُمَّ أخذوها ورحلُوا!!

وذلك موقفٌ أذكرُ أنِّي قرأتُهُ مِنْ قبلُ في منشورٍ على صفحة كاتبٍ، وهو صديقٌ لي على الفيسبوك، وإنَّها لأفاعيل شائعة في زماننا هذا بين الناس، فإنَّ الخير، وإن لَمْ يَرَهُ أحدٌ، كأنَّهُ لَمْ يحدثْ!

أصبح الرجلُ منهم لا يتصدَّقُ أو يُعطِي العطية، إلَّا إذا عَلِمَ أنَّها ستعودُ بنفعٍ عليه في الدُّنيا!!

سؤالٌ واحدٌ أسألُهُ لهؤلاء:

-ماذا عن الله؟!.... ألا يكفيكم أن يطَّلع على أعمالِكم مِنْ دون الناس؟

فكثيرةٌ هي المواقف التي نحضرُها أو نسمعُ عنها، وتكون مشابهةً لذلك، وهي جميعُها لا تدلُّ إلَّا على خِسَّة، وانتهازيَّة، ووساخة بالغة ممَّنْ أتوا بها، وهُمْ جميعًا لَمْ يجدُوا تربية صغار، ولا كبار، وهُمْ مُصَابون بسُوءٍ في الأدب.

البوستات المسروقة

البشرُ مُقلِّدُون بالفطرة، والتقليد كما نعرفُهُ لا عيب فيه.

إذا ردَّ المُقلِّدُ الفعل إلى أصله، ولَمْ ينسبْهُ لنفسه؛ فلا عيب على رجلٍ ليس بعربي يرتدِي جلبابًا، ومعروف عن الجلباب أنَّهُ تراث عربي أصيلٍ، ولا عيب على مَنْ يركبُ المرسيدس مثل مئات الآلاف قبله، والذين ابتاعوها، وتلك ماركة معروف صانِعها ومُصمِّمها، ولا عيب على شعوبٍ تُقلِّدُ شعوبًا أخرى في تنمية وحضارة.

الإدانةُ هنا فى تلك الخاطرة ليس للتقليد العادي الذي ذكرناهُ، ولكنَّهُ لتقليدٍ آخر يكتسبُ -وهو مرتاح- صفة السرقة. وفى أقرب مثالٍ: يكفي الواحد منا أن يتابع سيل المنشورات (المقصوصة،الملصوقة) على مواقع التواصل الاجتماعي، فبمُجرَّد أن يحك شخص -أي شخص- رأسَهُ؛ ليكتب منشورًا ما يُدلِي فيه برأيه قَصُرَ ذلك المنشور أم طال، حتَّى تراه في كُلِّ زاويةٍ هنا وهناك!

منشور بأسماء أخرى على بروفايلات أشخاص آخرون، خاصَّةً إذا حصل ذلك المنشور فى صورته الأولى على الاهتمام والرَّواج، ورغم توفُّر زِر المشاركة، وهو لا يتطلَّبُ إلَّا ضغطة واحدة، وتلك الضغطة لا تتطلَّبُ وقتًا أو جُهدًا، بل هي أيسرُ مِنْ خاصية السرقة المُسمَّاة(قص،لصق)، إلَّا أنَّهُ قليلٌ

مَنْ يستخدمُها!!

والأمرُ رغم هوانه -وهوانه هو سببُ عدم الخوض فيه مِنْ قِبَلِ كثيرينَ- إلَّا أنِّي أراهُ بالأمرِ الجَلَلِ، وأعتبرُهُ سرقة والسرقات نذالة وخِسَّة.

وسكوتُنا عن تلك السرقات الصغيرة، هو ما ينزعُ الرهبة والخوف مِنْ قلب السارق، ذلك الناموس الطفيلي الذي يعيشُ على دم المُبدِع ولحمه، وإذْ أنا في وسط حديثي عن السرقات، و(البوستات المسروقة بالذات) آتي على ذكر حادثةٍ مرَّتْ عليها سنوات عِدَّة، يوم كنا ناشطينَ فاعلينَ على واحد مِنْ أكبر جروبات متابعة الأفلام والسينما على الفيس بوك، وهو جروب كنتُ أنشرُ عليه بشكل مُطرِّد قصصًا كنتُ أكتبُها عن شخصيات سينمائيَّة، واعتدتُ فى تلك الفترة على مثل تلك الكتابات، أن أكتبَ قصةً على سبيل المثال عن شخصية سينمائيَّة، وأجعلها في مواجهة شخصية سينمائيَّة أخرى.

مثال: قصة (هاري بوتر، وشيرلوك هولمز)، ولَمْ أكنْ أكتبُ تلك القصص حينها إلَّا مِنْ باب التسلية، وفي نفس الوقت لكي أختبرَ قلمي، وأضعَهُ في تحديات بشكل مستمر؛ لأرى ما قد يصلُ إليه.

وكنتُ أتحدَّثُ في منشورات أخرى على نفس الجروب عن أفلام مُستوحَاة مِنْ رواياتٍ، وأرفقُ فى حديثي عن الفيلم رابط مباشر بصيغة(Pdf) للرواية المأخوذ عنها الفيلم.

أصدقاء آخرون كانوا يشاطرُوني نفس هوسِي، اعتادُوا أن يكتبوا مقالاتٍ

في نفس الجروب عن مُمثِّلينَ ومُخرِجينَ، وأفلام.

تلك الاهتمامات السينمائيَّة الأدبيَّة منا قد زاحمت البوستات التي تتحدَّثُ عن الأفلام نفسِها، وكادتْ تخرجُ بالجروب عن محتواه الأصلي، وهو ما أجبر أصحابُ الجروب ومنشئوه على إنشاء جروب آخر فرعي، ويكونُ لذلك النشاط الأدبي الذي كنا نقومُ به.

وبالفعل أنشأنا الجروب، وسطع في سمائه عِدَّة مدوِّنينَ، أشهرُهم وأهمُّهم: "محمود حنفي"، و"حنفي" هذا اسمُهُ مُستعَار، وصورة بروفايله أيضًا مُستعَارة.

منشوراتُهُ التي عرفنَاهُ بها على الجروب كانتْ بطابعِها نسويَّة، لاقت الرَّواج أكثر من أي منشورات أخرى على الجروب -خاصَّةً مِن الفتيات المُراهِقات وغيرهن؛ مِمَّا جعلهن يلتفتن حوله، ويتابعونه، وكثيرٌ منهن اعتدن أن يحادثونه "برايفت"، حتَّى جاء ذلك اليوم الذي اكتشفنا فيه أنَّ منشوراته أيضًا مُستعَارة!

ويجلبُها إلى الجروب بخاصية (قص، لصق) دون أي تصرُّف منه فيها أو تغيير!!

وفضيحتُهُ كانت بجلاجل، والتحفيل عليه استمرَّ لأسابيع!

كأن يأتي أحدُهم بصورةٍ من فيلم (طير إنت) لأحمد مكي، تحديدًا ذلك المَشهَد الذي يشيرُ فيه إلى صورة سمكته النافقة التي تُدعَى "حنفي، ويقول،

وهو يحدِّثُها:

-الوداع يا أبو الأحناف!!

وذلك مثالٌ على مُقلِّدٍ سارقٍ، اللهُ وحدَهُ يعلمُ حجم الأضرار التي سبَّبها، إلَّا أنَّهُ، ورغم كُلِّ شيءٍ يبقَى سارق صغير، لا همَّ لَهُ إلا الرَّواج، والتفاعُلات، والتحدُّث (برايفت) مع فتياتٍ في مثل سنه.

غيرُهُ تكون مساعيهم أكبر، ولعلَّ سيرة تلك الفتاة المُصمِّمة التي تعاونتْ مع إحدى شركات المشروبات الغازيَّة ليستْ ببعيدةٍ عنا، ولن أذكر اسمَ أي منهما: لا الفتاة، ولا الشركة.

تصميماتُها ذات الطابع المصري الفرعوني، والتي سرقتْها مِنْ فنانٍ ذي أصول أجنبيَّة، وقد قاضاها كما نعلمُ، وحصلتْ بسببِها على عقودٍ بأموال طائلة، وجوائز إبداعيَّة مرموقة، ومقابلات تليفزيونيَّة شهيرة، وهي في الأوَّل ،وفي الآخر سرقات!!

ومثلُ تلك السرقات تحدثُ بين الشركات الكبرى وبين الدُّول؛ فالصينيُّون عن طريق القرصنة الإلكترونيَّة حصلُوا على تصميمات كبرى شركات السيارات الأوروبيَّة، ومِنْ أهمِّها(مرسيدس)، وأنشأوها لديهم، ونسبُوها لأنفسِهم!

ليس هذا، وحسب، بل حصلُوا أيضًا على تصميمات أهم مقاتلة شبحيَّة لدى الترسانة الأمريكيَّة (f٣٥) تلك التي تملكُها إسرائيل، ونفَّذُوها لديهم،

ونسبُوها لأنفسِهم، وأعطوها اسم (j٣٥)!!

ونحنُ لا شأن لنا بما يحدثُ بين الشركات الكبرى، كما لا شأن لنا بما يحدثُ بين الدول الكبرى أيضًا، همُّنا هنا في السرقات غير المُنصِفة لحقوق الملكية الفكريَّة، والتي تحدثُ بيننا بشكل يومي، وهي سرقات صغيرة، نعمْ، إلَّا أنَّ افتعالَها يكسرُ الحاجز الأخلاقي في نفس الشخص الذي يقومُ بها؛ فهو بعد ذلك لا يهمُّهُ لو تكبر.

والتجاوزات الصغيرة إذا كثرتْ وزادتْ عن حدِّها شيئًا فشيئًا، يموتُ معها داخلنا الوازع الأخلاقي؛ فلا نستطيع بعد ذلك أن نميِّز بين حقٍّ وباطلٍ؛ لكثرة إقبالنا على الباطل.

وأختمُ مقالتي هنا بكلمةٍ لـ"عبد الله بن المقفع"، وجاءتْ في كتابه:(الأدب الصغير)، وفيها يقولُ:

"إن سمعتَ مِنْ صاحبكَ كلامًا أو رأيتَ مِنْهُ رأيًا يُعجِبُكَ؛ فلا تنتحلْهُ تزيُّنًا به عند الناس، واكتفِ مِن التزيُّن، بأن تجتنِي الصواب إذا سمعتَهُ، وتنسبُهُ إلى صاحبِهِ.

واعلمْ أنَّ انتحالَكَ ذلك مسخطةٌ لصاحبِهِ، وأنَّ فيه مع ذلك عارًا وسخفًا.

فإن بلغ بكَ ذلك أنْ تشيرَ برأي الرجل، وتتكلَّم بكلامِهِ، وهو يسمعُ، جمعتَ مع الظُّلم قِلَّة الحياء، وهذا مِنْ سُوء الأدب الفاشِي في الناس".

مرحلة الخدمة العسكريَّة

من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الخدمة العسكريَّة قفزة زمنيَّة ليستْ بالهينة، وهُمَا فترتانِ يفصلُ بينهما ما أقدِّرُهُ بعشرة إلى خمسة عشر مِن الأعوام، ورغم تلك المسافة غير الهينة بينهما على خط الزمن، إلَّا أنِّي أساوِي بينهما إلى نحوٍ قريبٍ في الأهمية والإفادة.

هُمَا متشابهتانِ جدًا على كثيرٍ مِن الأوجه؛ ففيهما اختبرتُ مشاعِر للمرة الأولى، تعلَّمتُ مهارات لَمْ أكنْ أعرفُها مِنْ قبلُ، كان لي فيهما أصدقاء ورفقاء لَمْ أجتمعْ بهم مرَّة ثانية إلَّا مرات قليلة ونادرة!

فيهما إدراكات مهمة لنفسي وذاتي، وكُلُّ ما جاء فيهما قادرٌ على أن يسرقني مِنْ وقتي الحاضر الذي أعيَشُ فيه؛ ومِنْ ثَمَّ يطيرُ بي إلى أوقات أخرى، ووقائع، هُمَا ملفانِ لهما عليَّ - حين أحملُهما- تأثيرٌ يماثِلُ تأثير السِّحْر.

ولأجل تلك الأسباب التي ذكرتُها أقفزُ مِنْ حديثي عن الطفولة، إلى حديثي عن الجُنديَّة، وذكرياتها متناسيًا بذلك ما قضيتُهُ بينهما مِنْ سنينَ... سنينَ لَمْ يأتِ وقت الحديث عنها بعدُ.

الطفولةُ والجنديَّةُ يجمعُهما حديثٌ واحدٌ

سبق أن ذكرتُ أنَّ الطفولة والجُنديَّة هُمَا مرحلتانِ متشابهتانِ جدًا، ويتماثلانِ في كثيرٍ مِن الأوجه، ولكي أثبت صدق مقولتي، ألجأُ إلى كلمةٍ وموقفٍ عايشتُهما في الفترتين: نفس المعايشة -تقريبًا-، وحضرتُهما في زمنينِ مُختلفينِ، وقد تكرَّرا بنفس التفاصيل، وأنا الوحيدُ فيهما الذي تغيَّرتُ في هيئتي، وتغيَّر موقفي مِنْ مُنادٍ إلى مُنَادَى عليه، ومِنْ طفلٍ إلى دُفعة!!

وتلك الذكرى كنتُ قد دوَّنتُها في واحدةٍ مِنْ مُذكِّرات الجيب، والتي حملتُها طوال خدمتي العسكريَّة، كتبتُها في قطار روسي أثناء عودتي مِن البيت إلى الكتيبة بعد انتهاء واحدة من الأجازات.

مرحلة الخدمة العسكريَّة

كلمة "دُفعَة"!!

ما زلتُ أتذكَّرُ ذلك الموقف، حينما كنتُ صغيرًا، ألعبُ مع مجموعة من الأطفال الآخرينَ، جاء أحدُهم، وقال:

-إنَّ أوتوبيس مليء بالعساكر قد نزل بمدرستِنا، حدث ذلك في موسم الانتخابات، ولا أذكرُ بالتحديد أي انتخاباتٍ تلك ، وما كان منا نحنُ الأطفال إلَّا أنَّنا ركضنا اتجاه المدرسة؛ فإنَّ أحدَنا لَمْ يرَ مِنْ قبلُ أوتوبيس عساكر، ولَمَّا وصلنا إلى المدرسة كان الأوتوبيس يهمُّ بالرحيل، أنزل قِلَّةً مِنْ عساكره في مدرستنا، وذهبَ؛ ليوزِّع الآخرينَ مِمَّنْ معه على لجانٍ أخرى.

حينها كنتُ الطفل الوحيد الذي تشجَّع، ولوَّح بيده للأتوبيس، صرختُ مُنادِيًا:

-يا دُفعة!

ردَّ عليَّ أحدُ العساكر، وبادلني تحية بأخرى ثُمَّ لاحظتُ بعد ذلك الغيرة في أعين بقية الأطفال الذين كانوا معي.

مرَّت الأيامُ بعد ذلك ثُمَّ أجدُني داخل أوتوبيس مليئًا بالعساكر، والأتوبيس في مَشهَدٍ مُماثِلٍ يدورُ بنا في الشوارِع؛ ليوزِّعَنا على لجان

الانتخابات، وأجدُني فى أحيانٍ أخرى جالسًا أعلى مُدرَّعة فَهْد مُتهالكةٍ، وفي يدي السلاح، وبين الحين والآخر يمرُّ شخصٌ، ويُنادِي بأعلى صوته:

-يا دُفعة!

ومعظمُ الذين يمرُّون أطفالٌ، ألوِّحُ إليهم بيدي، وأتذكَّرُ حينما كنتُ أنا الطفل، وأتساءلُ في نفسي:

- منذُ متى لَمْ أعدْ الطفل؟، ومتى أصبحتُ الدُّفعة؟

بالطبع بينهما الكثير... الكثير جدًا.

مرحلة الخدمة العسكريَّة

خدمة في يوم عِيد!

أشعلَ صاروخًا، وألقاهُ على الأرض، وقبل أن ينفجر أشعلَ آخر، وقبل أن ينفجر الصاروخ الآخر أشعلَ صاروخًا آخر غيره.

لقد أدركتُ مِن النظرة الأولى ما يريدُ هذا الفتى فعلَهُ: إنَّهُ يقومُ بإحداث سلسلة متواصلة من الانفجارات، فكُلَّما أشعلَ صاروخًا انفجر خلفَهُ آخر، وهو يسيرُ.

لقد كان هذا الفتى يحقِّق حلمًا، لطالما راود الفتية الصغار، وهو: إزعاج الأشخاص الأكبر سنًا!!

راح يلقِي الصواريخ بلا انقطاع في شارع يعج بالناس، ومع كُلِّ انفجار يحدثُ، يحصل الفتى إمَّا على شتيمةً، أو تأنيبً، أو على الأقل نظرة.

صاروخ واحد مِنْ صواريخه لَمْ يسعْهُ الانفجار بعدُ، ألقاه الفتى أمامي، وكان يقصدُني به، لَمْ يردْ هذا الشيطان الصغير إلَّا إزعاجي.

اشتعل الصاروخ حينما ألقاه الفتى، وقد انطفأتْ شعلتُهُ على الفور، مرَّ على الصاروخ ما يقربُ العشرين ثانية، وهو منطفىء ثُمَّ اشتعل مرة أخرى، وأخذ الدخان يتصاعدُ منه، وأنا أشاهدُ.

على بُعْدِ خطواتٍ فتاتانِ قادمتانِ نحوي، وأظنُّ الصاروخ ينفجرُ أسفل أقدامهما حينما تصلانِ.

سيظنُّانِ حتمًا أنِّي أنا مَنْ ألقيتَهُ.

هذا ليس إن رأيا الفتى مُحدِث الجلبة، نظرتُ إليه، فوجدتُهُ يخطو آخر خطواته في الشارع، وقد ابتلعَهُ الضباب!

يرقدُ بجانبي كلبٌ قد نسيتُ أنَّهُ هنا أصلًا، قام ذلك الكلبُ إلى الصاروخ حينما وصل الدخان المتصاعد منه إلى أنفه، اقترب الكلبُ مِن الصاروخ، أراد شمَّهُ، ورُبَّما أراد بعد ذلك ابتلاعه، وفجأةً انفجر الصاروخ، وتناثرتْ شظاياه الورقيَّة في وجه الكلب، ولَمْ يدرِ الكلب المسكين على وجه التحديد ما حدث؛ لذلك أدار نفسه بسرعة الضوء إلى وجهةٍ أخرى، وضع رأسَهُ مكان مؤخرته، وركض عاويًا.

حينها كنتُ أنا أشاهدُ، ولَمْ أجدْ شيئًا أفعلُهُ غير أن أضحك؛ فضحكتُ، وضحك مَنْ كان يجلس إلى جانبي... ضحكات صافية منبعُها القلب.

مرحلة الخدمة العسكريَّة
فترة قصيرة مِن الشِّعْر

أذكرُ أنَّهُ، وفي بداية دخولي الجيش دعاني داعٍ - لا أعرفُ مَنْ هو- إلى أن أكتب الشِّعر إلى زملائي المُجنَّدينَ.

أتاني أحدُهم، ولَمْ يكنْ عزيزًا عليَّ، أخذ يشكِّكُ في قدرتي على الكتابة؛ مِمَّا أثار غيظي عليه؛ فأخذتُ ورقةً وقلم وكتبتُ لَهُ بعض أبياتٍ أهجوهُ فيها، ولَمَّا قرأتُها عليه ولَّى وسكت.

أنا لَمْ أسكتْ، أخذتُ أعرضُها على بقية الزملاء المُجنَّدينَ مِنْ باب الشماتة فيه، والحقُّ: أنِّي فضحتُهُ، وفضيحتُهُ كانت بجلاجل.

لاحقًا حينما تركتُ المكان الذي كان فيه هذا الصديق، ورحلتُ إلى إحدى السرايا حدثتْ واقعة مُشابهة لتلك، وقد سَمَّعت في السرية، وأشهرتني فيها باسم "الشاعر"؛ لذلك لَمْ يطل الوقت، حتَّى أتاني زميل آخر وقفَ بجانبي ثُمَّ قال: "يا أبو البلد... أريدكَ أن تكتبَ لي قصيدة"، فكتبتُها لَهُ، ولَمْ أمانعْ، خصوصًا، وأنَّهُ أراد نوعًا خاصًا مِن الشِّعر، هو أقربُ إلى الغزل.

كتبتُ لَهُ قصيدةً، وعنونتُها باسم "صباح" محبوبته، والتى سيهدي لها القصيدة... ذلك الصديق مِنْ حُبِّهِ لشِعْري، طلب مني الأمرَ نفسَهُ أكثر مِنْ

مرةٍ، وفي كُلِّ مرةٍ كنتُ أكتبُ لَهُ ما يريدُ، ولَمْ أبخلْ بموهبتي عليه، وكُلَّما أنهي لَهُ قصيدةً يأخذُها، ويعرضُها على بقية المُجنَّدينَ، إلَّا قصيدة "صباح"؛ فتلك، ولأسبابٍ خاصَّةٍ احتفظ بها لنفسِهِ، ولَمْ يعرضْها على أحدٍ.

صديقٌ آخر، وهو صديق عزيز عليَّ، طلب مني الأمرَ نفسَهُ، أراد قصيدةً يهديها إلى أخته الصغيرة في عيد ميلادها، وأخته اسمُها "مريم"؛ لذلك أمسكتُ بورقةٍ وقلم، وكتبت:

"الناس فرحوا وسعدوا ... والنور كسا الركن المضلِّم

فيهم اللي قال: خير وبركة ... وقال باقيهم: ضربة مِعَلِّم

وجيه السؤال: سميتها إيه؟ ... رَد، وقال: سميتها مريم".

ولَمَّا أعطيتُها لَهُ، كانتْ سعادته بها كبيرة.

بعد ذلك عرفني كُلُّ عساكر السرية باسم "الشاعر"، فحينما أروحُ "راح الشاعر"، وحينما أجيء "جاء الشاعر" في العنبر، أثناء الخدمة، وفى الكانتين.

صرتُ معروفًا لدى كُلِّ عساكر السرية، والشاويش الذي لَمْ يكنْ يعرفُ غير اسمي أتاني، وسألني سؤالًا تلميحيًا، إن كنتُ أجيدُ لعب الكرة؛ ليضعَ اسمي فى دورة المعسكر الرمضانيَّة.

في البداية كان الأمر ممتعًا، لكنَّ بعد ذلك ظهرتْ لي مساوئه؛ فإنَّ هذا اللقب الذي أخذُوا ينادونني به "شاعر"، أضاف عليَّ تكلُّفًا أنا في غنى عنه،

وأنا بطبعي لا أحبُّ الظهور؛ لذلك ظللتُ أهربُ منهم جميعًا!

رفضتُ عرض الدورة الذي قدَّمَهُ الشاويش إليَّ، ورحتُ أتصنَّعُ عدم إجادتي للشِّعر، وكُلَّمَا يدعوني أحد بالشاعر، أخبرُهُ أنِّي لستُ بشاعرٍ.

تكلَّفتُ ردود الفعل البسيطة تلك بالمسألة، وسرعان ما نسي العساكر كُلَّ شيءٍ!!

ولأنَّهم جميعًا كانوا أقدم مني رحلُوا قبلي، وأخذُوا ذلك السر معهم، وأتَى على السرية عساكر جُدُد، أخفيتُ الأمر عنهم، وأبقيتُهُ طي الكتمان.

مرحلة الخدمة العسكريَّة

خُرَّاج أسفل الإبط!

فى البداية كانت حَباية أسفل الإبط، لا يعدو حجمها حجم حَبة اللب ثُمَّ استيقظتُ يومًا، فوجدتُها في طول وحجم إصبع الخنصر!

ثُمَّ كبرتْ فصارتْ في حجم حَبة الخوخ الصغيرة.

عرضتُها على أصدقائي المُجنَّدينَ، فأخبروني بأنَّها شيء يُدعَى "خُرَّاج"، وقال طبيب المعسكر الشيء نفسَهُ ثُمَّ حوَّلني إلى إحدى المستشفيات؛ لأستأصلَها؛ حيثُ أنَّهُ، وبسببِها لَمْ أكنْ أستطيع ارتداء الأفرول للخدمة، ولَمْ أكنْ حتَّى أستطيع النوم!

ولَمَّا ذهبتُ إلى المستشفى قادوني إلى عيادة الجراحة، وهناك استقبلني الطبيبُ بترحابٍ بالغ، حينما عَرِفَ أنِّي مُجنَّد، وعرض أن يُصفِّي "الخُرَّاج" بنفسِهِ، وألَّا يعهد بي إلى المُمرِّض.

أدخلوني غرفة العمليات، وهناك رأيتُ ما أنكرتْهُ عيناي: أحد المَرضَى جالسًا يمين الغرفة، ويغيِّرُون لَهُ الضمادات الملفوفة حول أصابع قدمه المبتورة، وفي زاوية أخرى عملية تُجرَى لرجلٍ في وجهه، وهو يصرخُ مِن الألم!! صرخاتٌ حادةٌ أدخلت الرُّعب في قلبي.

كانتْ تسود المكان رائحةُ الدم، ولا يُسمَع فيه إلَّا صوت الصراخ!!

لَمْ أحتملْ ما أسمعُ وأرى، ولَمْ أجدْ لَهُ في نفسي طاقةً؛ لذلك خرجتُ دون إخطار الطبيب، فوجدتُ في الخارج مثلَ ما وجدتُهُ في الداخل!

المَرضَى يملأون الطرقات المُؤدِّية إلى العيادة، ومعهم ذويهم... فإمَّا أورام، وإمَّا أعضاء مبتورة، وحروق، وإمَّا أشياء أخرى لا أعرفُ ماهيتها!

إلَّا أنِّي ميَّزتُ تأثيرها عليهم من الألم البادِي على محياهم، ومِنْ خطواتِهم المتأنية البطيئة.

بدتْ عيادة الجراحة في تلك المستشفى بالنسبة لي، وكأنَّها بيتُ رُعبٍ!

بيتُ رُعبٍ لا أحتملُ الوجود فيه، ولو دقيقة واحدة!!

خرجتُ، ولَمْ أُبالِ بالخُرَّاج، والذي يمنعُني من النوم، ويمنعُني مِن ارتداء الأفرول، لقد اعتقدتُهُ مصابًا كبيرًا، ونقمة أُصِبت بها، خرجتُ، وأنا أحسبُهُ شيئًا هينًا، بعد ما رأيتُ ما رأيتُ.

خرجتُ، وأنا لا أحسبُهُ شيئًا على الإطلاق، خرجتُ، وأنا أحمدُ الله على كُلِّ شيءٍ في حياتي.

الخُرَّاج بعد ساعاتٍ مِنْ ذلك اختفى وحدَهُ -مِنْ لُطف الله بي - ولَمْ أتكبَّدْ فى اختفائه هذا عناء أو مشقة مقارنةً بما كنتُ سأعانيه فى حالة الجراحة.

ما رأيتُهُ في ذلك المستشفى، وفي ذلك اليوم، لا أظنُّني سأنساهُ يومًا؛ فقد

ترك بي أثرًا عظيمًا؛ ولهذا ذكرتُهُ؛ ليعلمَ غيري ما علمتُهُ أنا، وهو: أنَّ في هذه الدنيا أبطالًا حقيقيينَ، تفتكُ بهم الأمراض، وتُبتَر أعضاؤهم، يكابدُون لأجل ذلك أشد الآلام الجسديَّة والنفسيَّة، ولا يردُّهم ما هُمْ فيه إلَّا شاكرِينَ لله، وحامدِينَ لَهُ على نعمِهِ عزَّ وجلَّ.

السؤال: أين نحنُ منهم؟!!

مرحلة الخدمة العسكريَّة
الكُتُبُ أغْلَى مِنْ ثمنِها!

واحدة مِن البديهيات التي تغيبُ عنا باستمرارٍ، ولا نفطنُ لها، هي: الأمانة؛ فالأمانة شيءٌ يجب أن يُردَّ إلى صاحبه، مهما طال به الزمان، ويجبُ ألَّا يُستهَان به أبدًا مهما صغر حجمُهُ.

فكثيرة هي اللحظات التى نعيرُ فيها أشياء إلى أشخاصٍ ولا يعيدونها وأسبابُهم في ذلك عِدَّة.

المشكلة بيني وبين هذا النوع من الأشخاص، هي: أنِّي تنشأُ بيني وبين الأشياء التى أستخدمُها نوعًا مِن الألفة والاعتياد ولا أستطيعُ التخلِّي عنها خاصَّة الأقلام، والمُذكِّرات، والكُتُب!!

كُلُّ كتابٍ أقرأهُ، أتفاعلُ معه، أدوِّنُ ملاحظاتي عليه، وأشتمُّ رائحة ورقِهِ كُلَّ وقتٍ وحينٍ، فيكونُ بمثابة الصديق الذي يؤلمُني التخلِّي عنه؛ ولهذا حينما أهادي أحدًا، أهاديه بأشياء جديدة ليستْ لي معها أية ذكرياتٍ.

أمَّا تلك التي سبق لي استخدامها؛ فلا أدعُها تفلتُ مِنْ يدي إلَّا ويخرجُ جزءٌ مِنْ قلبي معها.

أذكرُ أنِّي، وأنا في المعسكر -أيام الجيش - كنتُ يوميًا آخذُ معي كتبًا إلى

الخدمة؛ لتُعينني على مللِها وسقمِها.

أشتريها، وأنا قادم مِن البيت بعد كُلِّ أجازةٍ أو آتي بها مِن البيت نفسه، وأتفننُ كُلَّ مرةٍ في إدخالها إلى المعسكر؛ لأنَّها أحيانًا تُمنَعُ!!

رآها معي صديقٌ لا يقرأ؛ فأصرَّ أن يأخذَ منها للخدمة معه كما أفعلُ.

كانت الكُتُب التي أعطيتُها لَهُ مِنْ إصدارات هيئة "قصور الثقافة"، وتلك تكون كنوزًا بأسعار رمزيَّة، وغاية فى الرخص، ولا تكونُ إلَّا بجنيهاتٍ معدودة، وهو يقرأ في تلك الكتب وقع نظرَهُ على ثمنها مكتوبًا على الغلاف، فوقع الهوانُ في قلبه مِنْ ناحيتها، ولَمْ يعدْ يُبالي بها -كونها رخيصة بالنسبة له - وحينما عدتُ مِن الخدمة، وعاد هو، لَمْ أطيقْ صبرًا؛ لأسألَهُ عنها، فوجدتُهُ يقولُ لي: نسيتُها!!

ذلك الموقف أتذكَّرُهُ بالذاتِ؛ لأنَّهُ يضايقُني بشدةٍ، وأكثرُ ما يضايقني فيه، هو: عدم مبالاة ذلك الصديق، وهو يخبرني أنَّهُ نَسِي تلك الكُتُب التي أعطيتُها إيَّاه، بل، وظلَّ يضحكُ، وهو يخبرني ثُمَّ ذكر لى ثمنَها، وأكَّد على أنَّها ليستْ مهمة لتلك الدرجة!!

ذلك السلوك الذي بدرَ مِنْهُ قد حسبتُهُ مِنْ سُوء الأدب... أمَّا الكُتُبُ فقد عادتْ، وأمَّا الصديق، فلَمْ يعدْ بنفس ذات الأهمية التي كنتُ أعطيها لَهُ قبل ذلك، زاد تجاهُلِي لَهُ، ووقع الهوانُ في قلبي مِنْ ناحيته مثلما فعل مع تلك الكُتُب!!

مرحلة الخدمة العسكريَّة

خِسَّة عَسْكَر في المُعسكَر

"إن تقدِّرني أقدِّركَ، وألَّا تُقدِّرني، لا أقدِّرُكَ".

هكذا بدأ العسكري "م" يومَهُ الأوَّل كشاويش تشكيل، وقف أمام جمعٍ مِنْ زملائه، وأخذ يرهبُهم بما سيفعلُ بهم، إن هُمْ ساروا بالمشية المُعتادَة بطريقةٍ لا يرضاها!!

ومنذ ذلك اليوم أخذتْ شخصية "محمود" تتبدَّلُ مع كُلِّ صباح جديد، وتتَّجِهُ من سيىء إلى أسوأ؛ لتناسبَ وضعَها الجديد.

يذكِّرُني ذلك بالعسكري "م" الآخر في أوَّل يوم لَهُ كشاويش تشكيل، وقف نفس وقفة "م" الأوَّل تلك، يطلبُ مِن العساكرً أن يمشوا مشية مُعتادَة تسمَّع في المعسكر، وأن يطلقوا معها، وهُمْ يسيرون صيحات عالية، وحينما قام العساكرُ بعكس ذلك، سمعنَاهُ جميعًا، وهو يلعنُ بصوتٍ عالٍ، ويسبُّ الدِّينَ، وهو الذي لَمْ يكنْ يسمعُ أحدٌ صوتَهُ قبل ذلك!!

تحوُّلٌ كبيرٌ طرأ على شخصيته بين ليلة وضُحاها، جعلَهُ ينافر، ويكابر، ويتسافلُ!!

إنَّها في إيجاز "لعنة السُّلطة".

يذكِّرُني ذلك أيضًا بالعامل الذي لم يكن يعتنِي إلَّا بالنظافة فى مكان عمله، وحينما أراد له رَبُّهُ رفعة شأنٍ، وحصل على ترقية، تغيَّرتْ طريقة كلامه مع رؤسائه القُدَامى في القسم الذي جاء منه، وأخذ يحدِّثُهم بتعالٍ وتكبُّرٍ؛ فهو مثلُهُ مثل: "م" الأوَّل، و"م" الثاني شاويشية التشكيل.

تلك الشريحة مِن الناس، والذين ما إن تتغيَّر مكانتُهم يتغيَّرُون معها؛ فهُمْ مِن الناس، إن كانوا بين الناس، وهُمْ فوق الناس إن سنحتْ لهم الفُرصة أن يكونوا فوقهم، أو إن هيَّأت لهم الظروف مقعدًا جديدًا يسمحُ لهم بذلك؛ فهُمْ أخساء، وتلك المواقف التي ذكرتُها هي مواقف خِسَّة، ولا تنمُّ إلَّا عن سُوءٍ في الأدب!!

مرحلة الخدمة العسكريَّة
ذِكْرَى الخُرُوج بإعاقةٍ!

هناك غضب إلهي اسمُهُ "تساقط الشَّعْر"، ولسُوء حظي أنَّهُ قد ألَمَّ بي في أواخر خدمتي العسكريَّة؛ فأحال رأسي إلى أرضٍ قفرٍ، وهي التي كانتْ قبل ذلك غابة إستوائيَّة كثيفة الشَّجَر!

شَعْرِي، فلكَمْ كنتُ به فخورًا ومغترًا... أنمِّيه، أطلقُهُ، وأزيِّنُهُ بقصاتٍ عديدةٍ ومختلفةٍ، وقد كان آخر ما أردتُهُ لَهُ: أن أصبغَهُ باللون الأبيض الثلجي "صبغة دائمة"، لكنَّ ذلك لَمْ يتحقَّقْ.

تساقطُ الشَّعْر هو هامة مُنكَّسة بعد أن كانت مرفوعةً، هدمٌ يلِي البناء، وخرابٌ مِنْ بعدِ عمارٍ!

مِن الناس مَنْ يتقبَّلونه، ويكملُون حياتَهم بعد التئام الجِرَاح النفسيَّة الحادة التي يسبِّبُها، ومنهم مَنْ لا يرضون به، ولا يتقبَّلونه، فإمَّا داووا فرواتِهم، وأصلحوها بواحدةٍ مِن الطرائق العديدة المتوفرة، وإمَّا خبئوها أسفل الكابات، والطواقي، والعمائم.

ينفرُون مِنْهُ لحظة ظهوره، ويعلنُون عليه الحرب، حرب لا هوادة فيها، ولا تراجع، فإمَّا انتصروا، وإمَّا انتصر. بالنسبة لي، قد جاءني تساقطُ الشَّعْر

كما يجيء الموتُ على غفلةٍ؛ فلَمْ أصدِّقْهُ، وظللتُ أنكرُهُ حتَّى استفحل في رأسي، وانتشر فيها كما تنتشرُ النار فى محصول قمحٍ جافٍ، على وشك أن يُحصَد.

رأيتُ الخيال واقعًا ملموسًا، وما ظننتُهُ شيئًا بعيدًا، لَمْ يكنْ ببعيدٍ، وأصبحتُ أشعرُ به أمامي شديد القُرب مني.

إنَّ لمسألة تساقُط الشَّعْر معي حكاية، وهي حكاية قديمة تسبق دخولي الجيش، بدأتْ في ذلك اليوم، حينما لاحظ شخص قريب أنِّي أرتدي الكاب بكثرةٍ، ولا أخلعه ليل أو نهار.

كان ذلك الشخص القريب على وشك أن ينهِي مرحلة خدمته العسكريَّة، وكنتُ أنا على وشك البدء فيها.

أشار إلى الكاب الذي أرتديه، وقال مُحذِّرًا: إنَّهُ يتسبَّبُ في تساقُط الشَّعْر، وأنَّهُ ليس عليَّ إرتدائه على الدوام.

ورغم جديته، وهو يخبرُني بذلك، لَمْ أُبَالِ، ولَمْ أتخلَّ عن عادة ارتداء الكاب.

شخصٌ آخر كان له مِن القُرب مثل ما للآخر، قال لي: إنَّهُ طوال خدمته العسكريَّة لَمْ يرتدِ كابًا إلَّا مضطرًا: كأن يستدعيه ضابطٌ مثلًا؛ فيرتديه أمامَهُ لمدة قصيرة ثُمَّ ما يلبث أن يخلعه.

أخبرني بذلك، وفي نيته أن يشير إلى المشكلة ذاتها:"مشكلة تساقُط الشَّعْر"، لكنني لَمْ أستمعْ، ومثلما لَمْ أُبَالِ بمقولة الأول، لَمْ أُبَالِ بمقولة الثاني.

وسقط شَعْرِي لعوامل عِدَّة، وعلى رأسِها: ارتداء الكاب، لكنَّ الأهمَّ: أنَّ العامل الوراثي ليس أحدها، ووجدتني ألجأُ إلى أدويةٍ لَمْ أظنَّ يومًا أنِّي سأضطرُّ إلى استخدامِها.... أدوية أرجو بها بعد عناية الله أن تأتي بالفائدة.

أو سأضطرُّ إلى أشياء أخرى، ومِنْها: الشَّعْر المُصطنَعُ والزَّرع.

فإمَّا تلك الحلول أو أعيشُ -معاذ الله- أصلع للسنين الباقية لي مِنْ عُمري!!

الشيءُ المُحزِنُ: أنِّي ظللتُ طوال عامي الخدمة العسكريَّة أحلمُ باليوم الذي يأتي، وأرتدي فيه ما أريدُ، أمشي مع مَنْ أريدُ وقتما أريدُ، أحلمُ باليوم الذي أطَلِقُ فيه شَعْرِي كيفما أشاء، وحينما أوشك ذلك اليوم على القدوم، أوشك معه الشَّعْر أن يسقط ويضيع، إنَّهُ لشعور قاسٍ ومريرٍ!

شيء، وعلى قِلَّته - مقارنةً بمشاكل الناس- أشبهُ بكسرةِ نفسٍ.

وحينما أسترجعُ تلك الأيام التي كنتُ أمتلك فيها شَعْرِي بهيئته والتي كانتْ عليه، أرى أنَّها فترة كان يتملكُني فيها الغرورُ، وقد أُصِبتُ فيها بشيء مِن الانفلات الأخلاقي والدِّيني.

عاد شَعْرِي إليَّ - بحمد الله تعالى- بعد عناية وعلاج، لَمْ يعدْ كسابق عهده،

لكنَّهُ عاد، وقد تعلَّمتُ الدرس، وعرفتُ أنَّ أشياء بسيطة ينتزعُها عزَّ وجلَّ منا قادرة أن تغيِّر نظرتَنا لأنفسِنا؛ فتقتل غرورَنا، وتجعل رؤوسَنا في الأرض، بعد ما كانتْ في السَّماء!

أشياء بسيطة يخبرُنا اللهُ بها أنَّهُ يرانا، ومُطَّلع علينا؛ لهذا مشكلةُ تساقط الشَّعْرِ قد حسبتُها واحدة مِن الأشياء التي بدتْ لي، كما لو أنَّ اللهُ أرادَها، ليس لأسبابِها تلك التي ذكرتُها سابقًا، وحسب، لكنَّ لتوقيتها أيضًا؛ كونها جاءتْ في أواخر مدة خدمتي العسكريَّة؛ لتكون بالنسبة لي بمثابة المُنبِّهات التي تخبرُني أن أتمهَّل، وأنَّ ما أنا مُقبِلٌ عليه، ليس فيه نفعٌ، ولا يصحُّ.

وقد جاء الدرسُ ليضربني فى أعز ما كنتُ أملكُ: ضربني في ثقتي بنفسي، وفى غروري، ضربة لدِقَّة توقيتها، ودِقَّة إصابتها لهدفِها، ومدى تأثيرها علَيَّ - ذلك التأثير الذي يصيبُ المرء؛ فيمكثُ معه حتَّى آخر عُمره- لا أظنُّها تأتي إلَّا مِن السماء؛ حيثُ يجلس، ويطَّلع، ويقدرُ تعالَى وجلَّ، وتقدَّستْ أسماؤهُ.

مرحلة الخدمة العسكريَّة
بداية ونهاية!

يبدون جميعًا في البداية، مثل: أفراخ صغيرة تسعَى في مُحيطِها الآمن، أفراخ صغيرة لا خبرة لها، ولَمْ تختبرْ أجنحتَها بعدُ في مواجهة الرياح القوية، فمَنْ هُمْ؟

هُمَ أولئك الشبان الذين يتكدَّسُون فى صفوفٍ بالعشرات يوميًا أمام مكاتب التجنيد.

الأوغاد!.... أنظرُ إليهم مِنْ وقت للآخر، ولا أكاد أصدِّقُ أنِّي منذُ عام ونصف فقط كنتُ في مكانهم هذا!!

يروننا داخل السيارات مُرتدينَ أفرولاتنا المُموَّهة، والسلاح في أيدينا، فيلوِّحُون إلينا بأيديهم، ويصرخُ مِنْ بينهم واحد، ويقولُ:

"يا دُفعة، كُلَّها كام شهر، وهأجيلكَ".

أو يقولُ:

"كُلَّها كام شهر، وهنبقى زيكم كده".

نراهم نحنُ، ونرى البلاهة في أعينِهم، ونعلمُ تمام العِلْم أنَّ هيئتَنا تلك التي نبدو عليها، هي شيءٌ يتطلَّعُون إليه.

وبعد كُلِّ مشاعرِهم النبيلة تلك، اتجاهُنا لا يعلمُون هُمْ أنَّنا ندعوهم منذ الآن بلفظٍ لن يروق لهم "مُستجدِّين".

نعمْ، فهُمْ مُستجدُّون علينا، وعلى الخدمة العسكريَّة، ومُستجدُّون في العنابر، وعند حمل السلاح.

هكذا نراهم نحنُ، وهكذا يراهم عساكر مكتب التجنيد، والذين يسوقونهم داخل المكاتب؛ لإنهاء أوراقهم بغلظةٍ وقسوةٍ، قسوة لا يعلم المُستجدُّون سببًا لها، تراهم يتقدَّمُون فى الصفوف، أعينُهم شاخصة نحو عساكر مكتب التجنيد، وكأنَّهم يتساءلون:

"ألسنا مثلهم منذ الآن؟، لماذا تلك المعاملة إذًا؟!".

الإجابة على تلك الأسئلة ،هي: أنَّهم عساكر مُستجدة، ولا يمكنُ أبداً الوثوق بالعسكري المُستجد قليل الخبرة، غير المُتمرِّس، وغير الضليع بالحياة العسكريَّة.

تلك الصفوف التي ترهقُهم هي البداية فقط، وما يليها هو ما يجبُ عليهم التفكير فيه.

لقد بدأ الأمر معي بنفس تلك التفاصيل، وقد كنتُ مثل هؤلاء عسكري مُستجد (اللهُ لا يعيدها أيام)، وكثيرًا حينما أجلسُ مع نفسي، وأتذكَّرُ البدايات، أتساءلُ عن النهايات، وكيف عساها تكونُ؟

بالطبع لن يختلف المَشهَد كثيرًا عمَّا رأيتُهُ منذ شهرٍ واحدٍ فقط... كنتُ حينها في طريقي إلى الكانتين، حينما سمعتُ صوتَ غِناء قادم من أحد العنابر، أتى الصوت مِنْ عنبر سرية الأمن والحَرَس بالتحديد، والذين يغنون داخل العنبر هُمْ عساكر السرية، والذين أوشكتْ مدة خدمتهم العسكريَّة على الانتهاء، كانوا مُتحمِّسينَ جدًا، وهُمْ يقولُون في صوت واحد:

"لفي لفي يا مروحة، دُفعة عشرة مروَّحة!!".

ثُمَّ غنُّوا بعد ذلك بكلمات أخرى راقتْ لي، وأودُّ في يومٍ مِن الأيام أن أغنِّيها مثلهم، لقد كانوا يقولُون جميعًا بصوتٍ ملائكي عذبٍ:

-"أحيه أحوه، خلَّصنا د*ن أبوه!!".

مرحلة الخدمة العسكريَّة

ذِكْرَى الوَاجِب

بعد مرور الوقت على انتهاء خدمتي العسكريَّة، أجدُ بي رغبة مُلحة في الحديث عنها... أقولُ: إنَّها مرحلة الشعارات؛ فالفدائيَّة، والرجولة، واليقظة، والدقَّة، والشَّرفُ كُلُّها أشياء بُلِّغنا بها لحظة وصولنا إلى المعسكرات، وتعلَّمناها، وكُلُّها شعاراتٌ قد اختبرناها، وتعلَّمنا مدى صدقِها أثناء معيشتِنا في الثكنات:(سلاحُكَ شرفُكَ، مظهرُكَ عنوانُكَ، زميلُكَ سندُكَ، قُوَّتُكَ في شخصيتكَ، احترامُكَ لنفسكَ قبلَ احترامِ الناسِ لكَ).

جُمَلٌ كتلك ظلَّتْ تُعَاد على مسامعنا طوال مرحلة الخدمة العسكريَّة، مِنْ بدايتها إلى نهايتها بلا انقطاع... تُقَالُ لنا لحظة التلقين بعد طابور اللياقة أو تُقَالُ لنا قبل الخروج إلى الخدمة، وليس الذي يهمُّ أنَّنا فقط سمعناها، ولكنَّنا مع ذلك رأيناها رأي العين، وعايشناها شهور عديدة، وتبيَّن لنا مدى صدقِها.

هي كذلك مرحلةُ النُّفوس

مرحلةٌ نُحشَرُ فيها جميعًا "كجنودٍ" إلى مصير واحد، ونتقاسمُ نفس المأكل، والمشرب، والملبس، ونُعامَلُ جميعًا نفس المعاملة، على الرغم مِن اختلافِنا في كُلِّ شيءٍ؛ فعقولُنا عِدَّة، ونفوسُنا عِدَّة، وقلوبُنا عِدَّة، وكذلك تختلفُ النشآت، والتي هي منبعُ كُلِّ ما سبق.

كان الواحد منا قبل دخوله الجيش يُعامِلُ مَنْ يعاملُ مِن الناس، ويبتعدُ عمَّنْ لا يريدُ التعامُل معهم، وعمَّنُ لا يطيقُ... يختلف الوضعُ داخل الثكنات؛ حيثُ يكون الواحد منا مُجبَرًا على التعامُل مع الجميع.... أولئك الذين يطيقُهم، وأولئك الذين لا يطيقُهم، ولا يصبرُ حتَّى على النظر إلى مُحيَّاهم.

وبسبب تعدُّد العقليات والنفوس فى تلك المرحلة، يصبحُ الواحد منا قادرًا - وبكُلِّ سهولةٍ- على أن يميِّز الخبيث مِن الطيب مِن الناس؛ فإنَّهُ في هكذا حياة وهكذا ظروفٍ يتسنَّى للجميع أن يعاشر الجميع معاشرة أفراد العائلة الواحدة، وبين أفراد العائلة الواحدة لا يوجدُ كذب، ولا زيف، ولا تدليس، وتكفي الفرد منا نظرة واحدة يُلقِيها إلى الآخر؛ فيتبيَّنُ بها ما في نفسِهِ، ويعلمُه.

هي مرحلةٌ تعبِّرُ عنها كلمات "أحمد مكي" في أغنيته "وقفة ناصية زمان"؛

إِذْ يقولُ:

"قابلنا كل أنماط جنس الإنسان

واتعاملنا فإتبنى جوا الدماغ بوصلة وميزان

فى جزء الثانية بنعرف نفقس مين جدع ومين جبان

ومين قلبه مات وأسود

ومين قلبه بينبض حنان

ومين تشوفه تقول: ده هادي

ولو نكشته تشوف جِنَان

ومين غلبان ومين شيطان

وقِرد وجِن وبهلَوان؟".

هي كذلك مرحلةُ الصداقةِ

الوقتُ الذي نقضيه مع بعضنا البعض، سواء في الخدمات أو العنابرلا نقضيه مع أي أحدٍ آخر، ولا حتَّى أهالينا في البيت، وبالنسبة لي أنا هي مرحلةُ صادقتُ فيها الجميع، لكني لَمْ أقتربْ إلَّا مِنْ أولئك الذين يشبهوني؛ فمنذُ يومي الأوَّل قد اشترطتُ أنِّي لن ألجأ إلَّا إلى الأصفياء، القريبينَ، الونساء، العقلاء... أولئك الذين يصلحُ أن يُقَال لهم أصدقاء بلا شروط.

فإنَّ الواحد منا قد يصادقُ أي أحدٍ، إلَّا أنَّهُ لا يأنسُ إلَّا بمَنْ هو مثله، ومَنْ هو على شاكلته؛ فالخسيسُ لا يأنسُ إلَّا بالخسيس، والوضيعُ لا يأنسُ إلَّا بالوضيع، وصاحبُ الشَّرف لا يأنسُ إلَّا بصاحبِ شرفٍ مثلِهِ؛ لهذا لجأتُ إلى أشخاصٍ يشبهوني، وقد وجدتُ منهم الكثير.

أصدقاء لا يشترطون في الصداقة شيئًا، إنَّما هُمْ أصدقاء لمُجرَّد الصداقة فقط؛ فلا مصلحة، ولا منفعة تُرجَى، إنَّما هي القلوبُ قد تلاقتْ.

هؤلاء الأصدقاء أذكرُ منهم: "أحمد فكري"، "عبد الله منصور"، "عبد الرحمن زهران"، "شعيب محمد"، وصديقه "عبد الرحمن"، "مصطفى أبو شنب"، "مصطفى الشاعر"، "مصطفى منصور"، "جرجس نور"، "نور سامي سعد"، "إبراهيم إسحاق"، "أحمد الديب"، "أحمد عيد سعداوي"، "علي علي طه"، "محمود أبو الحمد"، "هنداوي"، "الرَّنَّان"..... وآخرون كُثُرٌ، لَمْ تسعفْني

الذاكرة؛ لأتذكَّر أسماءَهم.

شلة نظيفة قد تشكَّلتْ بها كُلُّ ذكرياتي عن مرحلة الخدمة العسكريَّة، ولا أريدُ أن أتذكَّرها إلَّا بهم.

شيءٌ للكُتُب
تعلَّمتُ الكتابةَ خارجَ المدرسةِ!

قد يكونُ ما أوشك على قوله الآن صادمًا للبعض، وهو: أنِّي لَمْ أتعلَّم القراءة والكتابة في المدرسة، بل تعلَّمتُهما في مكانٍ آخر لن يخطر على بال أحدٍ!!

أذكرُ أوَّل يوم لي بالمدرسة، يوم -على ما يبدو- لَمْ أكنْ أعلمُ فيه أنِّي ذاهب إلى المدرسة (أصلًا)، ولم يكونوا قد قدَّمُوا أوراق قبولي فى المدرسة بعدُ، فما فعلوهُ يومَها، هو: أنَّهم أيقظوني، وألبسوني ثياب اليوم الدراسي الأوَّل ثُمَّ أخذ عمي يبحثُ عن ورقةٍ ما، أظنُّها شهادة ميلادي، ولمَّا وجدها كان الوقت قد تأخر.

حين وصلنا إلى المدرسة، وفي يومي الأوَّل ذهبُوا بي مباشرة إلى التختة، وجلستُ، رأيتُ مُعلِّمًا يهتفُ، والتلاميذ يهتفون خلفَهُ، يشيرُ بعصاه إلى أحرفٍ كتبَها هو على السبورة، ويُخرِجُ التلاميذ؛ ليهتفوا مثلَهُ!!

وفى داخلي لستُ أدركُ ما يحدثُ، ولستُ أعلمُ الفائدة مِنْ حدوثِه، أذكرُ أنِّي في تلك الأيام أخرجني المُدرِّسُ نفسَهُ إلى السبورة؛ فكتبتُ لَهُ كلمةً صحيحةً وكاملةً، كانتْ موضوع الدرس، فراح يُنادِي على كُلِّ مَنْ يجدُهُ في الطرقة المُؤدِّية إلى الفصل، ويقولُ لهم: انظرْ.. انظرْ، ماذا يفعلُ تلميذي؟

إلى جانبه مَنْ يسألُ:

-ابن مَنْ هذا؟

فيجيبُ:

-هذا أحمد ابن فلان الفلاني...

بعد ذلك فقدتُ نفسي في دوَّاماتٍ لستُ أذكرُها، ولَمْ أخرجْ إلى السبورة مرَّة أخرى إلى فترة طويلة، ولم يفخر المُدرِّسُون بي.

فترة تعلُّمِي الكتابة والقراءة هي فترةٌ انكببتُ فيها على الكمبيوتر، وألعاب الكمبيوتر، ولعبة (gta) على وجه الخصوص، ولَمَنْ هُمْ في مثل سني، وحضروا تلك الأيام، يعرفُون أنَّهُ كانت للعُبة شفرات يتمُّ كتابتها على لوحة المفاتيح أثناء اللعب؛ فتعطِي لَمَنْ يلعبُ امتيازات؛ فشفرةٌ تجعلُكَ تقودُ السيَّارة فوق الماء، وشفرةٌ تعطي لكَ مجموعة كبيرة مِن السلاح، شفرةٌ تغيِّرُ بها ملابسَكَ، وشفرةٌ تغيِّرُ بها شخصيتكَ، شفرةٌ تجعل النساء ينجذبن إليكَ، وشفرةٌ تجعل الشخصية تدخِّنُ!!

ولحظة حفظي لتلك الشفرات هي لحظة معرفتي للحروف العربيَّة منها، والإنجليزيَّة، فعدتُ مرة أخرى، أخرجُ إلى السبورة، وعاد المُدرِّسُون مرَّات قليلة يفخرُون بي.

ولعِي الأكبر في تلك الأيام كان للإملاء والتعبير؛ فَفِي الإملاء كنتُ

أكتبُ بلغةٍ سليمةٍ وصحيحةٍ، وإلى درجة مِن الإتقان لَمْ يصلْ إليها زملائي.

وفى التعبير كنتُ أتيهُ مع نفسي، وأكتبُ؛ حيثُ لَمْ يكنْ يعلمُ مَنْ حولي كيف يعبِّرُون عن موضوعٍ ما، أوَ كيف يكتبونه، كنتُ أجدُ أنا في ذلك الفرع شغفًا ولذةً.

وولعِي الأكبر كان في دروس اللغة العربيَّة، أذكرُ درس "حذاء أبو القاسم"، وكان عن شخص بخيلٍ اسمه "أبو القاسم"، وهو تاجرٌ عاش قديمًا في بغداد، ولَهُ حذاءٌ، كُلَّما انقطع، وضع عليه خرقةً حتَّى امتلأ بالرقع.

الحذاءُ هو رمزُ بخلِهِ، ورغم كثرة كلام الناس عنه لَمْ يشترِ حذاءًا غيرَهُ!

تسيرُ أحداث الحكاية في القصة إلى متاعب جَمَّة يقعُ فيها "أبو القاسم" سببُها حذاؤه، ويخسرُ بسببه ثروته!

وفى نهاية القصة يذهبُ إلى القاضي، ويتبرَّأُ أمامَهُ مِن الحذاء.

ذلك الدرس كنتُ أحفظُهُ بلغتِهِ الفصحى عن ظهر قلبٍ، سمعني بعضُ الزملاء أقصُّهُ على نفسي، وأنا في سعادةٍ؛ فاستمعوا إليَّ، وأذكرُ بعد ذلك أنَّهم طلبُوا مني مرات عديدة أن أقصَّهُ عليهم، وقد كنتُ أرى الحماس في أعينِهم، تلك اللمعة، وذلك الانتباه اللذانِ يصدرانِ مِنْ شخصٍ يعلمُ أنَّهُ أمام قصة جيدة يحكيها له راوٍ حكايات جيد.

وواحدة مِن السلوكيات العديدة التي كانتْ مِنْ أسباب فشلي في الدراسة

تلك الأيام، هي: "أحلام اليقظة"؛ فلطالما اعتدتُ، وأنا صغير أن أغيب عن العَالَمَ الحاضر، وأذهب بمخيلتي إلى مُدن أخرى وعَوَالم، أنسجُ قصصًا وحكاياتٍ، وأشكِّلُ في عقلي حواراتٍ مع أشخاص آخرينَ لَمْ ولن تحدث!

كنتُ أغيبُ مع نفسي إلى عَوَالِمي الخاصَّة، وأتيهُ تيهًا، وقد عرفني بعضُ الناس أيامها بتلك الميزة، حتَّى ظنَّ البعض منهم أنِّي لستُ أملكُ عقلًا سليمًا!!

وقد استبدَّت الحواراتُ التي كنتُ أنسجُها مع نفسي بي، إلى درجة أنَّهُ في بعض الأحيان كانت تصدر بعض التعبيرات على وجهي أو بعض الكلمات يستغربُ الناس لها، وشيئًا فشيئًا بعدَ ذلك تعلَّمتُ أن أقفل بابًا على تخيُّلاتي تلك، وأجعلها خاصَّة بي، وقد نجحتُ إلى حَدٍّ ما مِنْ يومِها في الحفاظ على تعبيرات وجهٍ جامدةٍ؛ فلطالما كانتْ تعبيرات وجهي تفضحُني، ومِنْ يومها جمود التعبيرات أتلف قلبي، وأصابَهُ بشيءٍ مِنْ جمود المشاعِر، حتَّى ظننتُ، ولا زلتُ أظنُّ بنفسي البرود!!

نعمْ أقرُّ: كانتْ لي منذ وُلِدتُ بحمد الله مخيلة خصبة، وقُدرة على الإبداع والخيال، ولقد عرفتُ حكي الحكايات، وتخيُّل العوالم والكتابة التعبيريَّة الإبداعيَّة قبل سنوات كثيرة جدًا مِنْ مقابلتي لمصيريَ الذي أعيشُهُ الآن، وهو: مصير الكتابة.

حينما أعودُ طوعًا إلى غرفة الذاكرة، وأنقبُّ فيها عن فترة الطفولة المبكرة،

أجدُ أنَّ الكُتُب والكتابة كانا يطارداني طوال حياتي، رغم ما بيني وبينهما مِنْ بُعْدٍ!

ورغم كُلِّ الأشياء التى حالتْ بيني وبين اجتماعي بهما، حينما أعودُ إلى غرفة الذاكرة، أجدُ أنَّها أشياء تبدو كما لو أنَّ الله أرادَها.

وأنا مِنْ مكاني هذا، وفي وقتي الذي أكتبُ فيه، لستُ أعلمُ مصيري والكتابة، ولست أعلمُ، أين ينتهي المطاف بي؟ إلَّا أنِّي، وكُلِّي يقينٌ بالله تعالَى عزَّ وجلَّ، لا أنتظرُ إلَّا الخير، ولا أعملُ إلَّا للخير، ومع علمي أنَّ الشر ليس عنا ببعيدٍ، ومع أخذي مِنْ جانبه الحيطة والحذر.

ذلك شيءٌ يسيرٌ مِنْ حياتي، إلَّا أنَّهُ يُغنِي عن الكثير، ولعلي حين أضعُ نقطة نهاية لكُلِّ ما جاء فى هذا الكتاب، أكونُ قد أقنعتُ مَنْ يقرأ أنَّ حياتي كاملة هي بالفعل شيءٌ للكتابة، وهي بالفعل "شيءٌ للكُتُب"... وقد كنتُ أُسدِي نصيحةً يومًا إلى واحدٍ مِنْ أبناء عمومتي الصغار، فقلتُ لَهُ:

-كُلُّ واحدٍ في هذه الحياة يجدُ نفسَهُ في شيءٍ(غاية أو هدف)، وأنتَ حتَّى تجد ذلك الشيء، افعلْ ما يتوجَّبُ عليكَ فعلُهُ(أي: ما يمليه الواجب).

أنا عن نفسي - وبفضلٍ مِن الله عزَّ وجلَّ- قد وجدتُ نفسي في الكتابة، وفي الكُتُب، وَأعتقدُ - وأنا لستُ علَّامًا للغيب- لو أنِّي لَمْ أجدْها، لضاعتْ مني ضياعًا لستُ بعدَهُ أسترجعُها، وكُلُّ فقرات هذا الكتاب، والتي جاءتْ فيما نحوه عشرة آلاف كلمةٍ تقريبًا هي عرفانًا مني بجميل الكُتُب عليَّ،

وبصنيعِها معي، وشكرًا.

تمَّ بحمدِ اللهِ

تعريف بالكاتب

"أحمد سالمان إسماعيل محمد"

"أحمد أبو سيف" انتسابًا للعائلة

كاتب مصري، مواليد الخامس مِنْ يوليو، عام (١٩٩٩)م

لَهُ بعض الأعمال المنشورة: رواية "حديث القرية"، والمجموعة القصصيَّة "زمن لا يصلح للخِلْفة" لدى "المكتبة العربية" للنشر والتوزيع، ورواية "لعنة كتاب"، ورواية "طيف المعمداني"، وكتاب "زعيم القبيلة" لدى دار "الزيات" للنشر والتوزيع.